# مدح
# المهاجرين و الأنصار
## في شعر كعب بن زهير
(دراسة فنية)

للدكتور

**محمود حمدان محمد بخيت**

أستاذ الأدب و النقد المساعد

في كلية الدراسات الإسلامية و العربية

للبنات بسوهاج

بسم الله الرحمن الرحيم

**مقدمة:**

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف المرسلين سيدنا محمد وعلى آله وصحبه ومن اهتدى بهديه إلى يوم الدين (رضوان الله عليهم أجمعين).

**وبعد...**

فإن المدح فن من الفنون الشعرية القديمة قدم الشعر الجاهلى، رافق قيثارة الشعر العربى منذ وجودها الأول فكان وتراً رنان الصوت فيها، ومن ثم أثرى تراثنا الشعرى بكثير من القيم الأخلاقية والفضائل الإنسانية ونقل إلينا خيالات الشعراء وإبداعاتهم الفنية، فهو لون غنى بمعانيه وأفكاره، وأساليبه وصوره.

فقد (تعود العرب منذ العرب الجاهلى أن ينوهوا فى أشعارهم بأشرافهم وذوى النباهة منهم، ويتحدثوا عن خصالهم النبيلة من الكرم والشجاعة، والحلم والوفاء، وحماية الجار، وكان لا يعد السيد فيهم كاملا إلا إذا تغنى بنباهته ومناقبه غير شاعر، ومضوا على هذه السنة فى الاسلام) (١)

ولعل من دلائل ذلك أنه بات من العسير علينا أن (نجد شاعراً عربيا

---

(١)العصر الإسلامى للدكتور شوقى ضيف ص٢١٥ دار المعارف. الطبعة الثالثة عشرة ١٩٩٢م.

واحدا من العباقرة أو من غير العباقرة لم يصطنع المديح إلا ما ندر، حتى امتلأت الدواوين بهذا الفن، وغدت قصائده تشكل القسم الأوفى فى نتاج الشعراء) (١)

و يعد كعب بن زهير بن أبي سلمى من أبرز شعراء المدح في صدر الإسلام، حيث مدح الرسول صلى الله عليه و سلم في قصيدة رائعة كانت مثلا احتذاه كثير من شعراء المدائح النبوية، كما مدح المهاجرين و الأنصار في قصائد ومقطوعات جيدة نلمس فيها صدق العاطفة، وروعة التطوير، وسلامة الفطرة وأصالة الفن، وواقعية الوصف.

وعلى الرغم من اهتمام بعض الدارسين والباحثين بشعر كعب إلا أننى أرى أن شعر هذا الشاعر المجيد ما يزال ميدانا لكثير من الأبحاث والدراسات، فما يزال مدح المهاجرين والأنصار فى شعر كعب بن زهير يكتنفه الغموض فى بعض جوانبه، حيث لم يحظ هذا الجانب من شعره باهتمام الباحثين والدارسين، ولم يكتب عنه -فيما أعلم- بحث مستقل.

لذلك أثرت أن يكون موضوع هذا البحث (مدح المهاجرين والأنصار فى شعر كعب بن زهير. دراسة فنية )

وقد وقع اختيارى على هذا الموضوع لأسباب أهمها:

(أ) أن فن المديح يعد مدرسة أخلاقية فى الشعر العربى. إذ أنه يعد

---

(١) فن المديح وتطوره فى الشعر العربى. أحمد أبو حاقة ص١٥ منشورات ار الشرق الجديد بيروت ١٩٦٢م.

(معاينة للفضيلة وذكراً للمحاسن، وتمجيداً للبطولة، وتغنياً بالمآتى العظام) [١]، وما من شك فى أن هذا الشعر يتخرج فيه الناشئة على (الشجاعة والكرم، والإباء والأنفة، وحب المجد، والطموح إلى المعالى، والعدل، والحلم والمروءة، وغير ذلك مما يصح أن يمتدح به العظماء من رجالات القوم ) [٢]

(ب) أن لشعر المديح فوائد تاريخية إضافة إلى إبداعاته الفنية (فهو علاوة على ما يحتويه من روعة التصوير، وجمال التعبير، ورهافة الحس، وعمق الشعور، وسعة الخيال، وإثارة العواطف، وتحريك الوجدان، وإقامة المشاركة بين الشاعر وبين من يقرأ شعره أو يسمعه فإنه يطلعنا على اساليب العيش لدى القوم وعلى عاداتهم وتقاليدهم. وآدابهم العامة، ونظمهم الاجتماعية والسياسية والاقتصادية، كما يطلعنا على أخبار العظماء وأعمالهم) [٣]

(ج)أن الإعجاب بالقيم الأخلاقية والفضائل الإنسانية، والعظيم من الرجال سمة إنسانية نجدها لدى جميع الشعوب وفى مختلف العصور، (بل نجدها فى قرارة كل نفس إنسانية مهما تباينت نزعاتها، ومهما افترقت أساليب عيشها ونظمها ومثلها العليا، وغاياتها فى الوجود) [٤]

---

(١) فن فند المديح وتطوره فى الشعر العربى. أحمد أبو حاقه ص٢٨

(٢) المرجع السابق ص٢٨

(٣) فن المديح وتطوره فى الشعر العربى. أحمد أبو حاقة ص٢٩، ٣٠

(٤) المرجع السابق ص٦

(د)أن كعب بن زهير يعد من أبرز شعراء المديح فى صدر الاسلام، تميز مديحه بخصائص فنية، وسمات أسلوبية جديرة بالبحث والدراسة.

لذلك آثرت هذا الموضوع، لأزيح عنه الستار، وأزيل من فوقه الغبار، آملاً أن يكون إسهامة متواضعة فى الدراسات الأدبية والنقدية، وأن يجلو بعض الغموض الذى يكتنف مدح المهاجرين والأنصار فى شعر كعب بن زهير.

وقد توخيت أن أنهج فى هذه الدراسة منهجاً تحليلياً فنياً، يعنى بتحليل المدح فى شعر الشاعر، ويكشف عما يحويه من قيم شعورية وجمالية. وقد جعلته مكوناً من مقدمة، وأربعة فصول يسبقها تمهيد وتعقبها خاتمة.

المقدمة: تناولت فيها أهمية الموضوع، وسبب اختيارى له، ومنهج الدراسة فيه.

التمهيد: تناولت فيه المدح فى الشعر الجاهلى فى إيجاز.

الفصل الأول: التعريف بكعب بن زهير.

الفصل الثانى: مدح المهاجرين والأنصار فى شعره.

الفصل الثالث: الخصائص الفنية فى شعره المدحى.

الفصل الرابع: آراء النقاد فيه.

أما الخاتمة: فقد ذكرت فيها أهم النتائج التى توصل إليها البحث.

المصادر والمراجع:

الفهرس:

ولا يسعنى إلا أن أتوجه إلى الله العلى القدير بالحمد والثناء على حسن توفيقه، وعظيم عونه فى إبراز هذه الدراسة المتواضعة التى آمل أن أكون قد وفقت فيها، وإلا فحسبى أننى رمت الغاية وبذلت الجهد وحاولته.

وما توفيقى إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب..

**د. محمود حمدان محمد**

أستاذ الأدب و النقد المساعد بالكلية

**تمهيد :**

**المدح في العصر الجاهلي :**

المدح فن المحبة والاحترام[١].. إذ هو (الثناء على إنسان بذكر أفضاله، وتعداد خلاله الكريمة وخصاله العظيمة) [٢]، ووصفه بما يستحسن من الأخلاق النفسية (كرجاحة العقل، والعفة، والعدل، والشجاعة، وأن هذه الصفات عريقة فيه وفى قومه، وتعداد محاسنه الخلقية: كالجمال وبسطة الجسم.) [٣]

وقد نشأ فن المديح عند العرب (إعجاباً بالفضيلة وثناء على صاحبها، وحباً للجليل من الأعمال، واهتزازاً أمام الأريحية وأمام الشجاعة، وإكباراً للمروءة وتقديراً للنبل، وحثاً على كل ما من شأنه أن يسير بالإنسان نحو الأفضل من الأوضاع، وأن يحقق ما ترنو إليه المجتمعات من كمال تنشده) [٤]

وما من شك فى أن طبيعة الحياة العربية فى العصر الجاهلى والنظم الاجتماعية والسياسية التى كانت سائدة آنذاك. هى التى ساعدت على نشأة هذا الفن وانتشاره، وهى التى جعلت الشعراء يجودون

---

(١)الأسلوب.للأستاذ أحمد الشايب ص٨٨مكتبة النهضة المصرية ط ثامنة سنة١٩٩١

(٢)الحياة الأدبية فى عصرى الجاهلية وصدر الإسلام. للدكتور محمد عبد المنعم خفاجى والدكتور صلاح الدين عبد التواب ص١٢٨

(٣)الوسيط فى الأدب العربى وتاريخه: للشيخ أحمد الإسكندرى والشيخ مصطفى عنانى ص٤٨

(٤)فن المديح وتطوره فى الشعر العربى أحمد أبو حاقه ص١٥

فى شعرهم المادح، كما حملت الممدوحين على الرضا عن هذا المديح الذى يناسب أهواءهم وميولهم، ويكبرهم فى أعين الناس ويقر لهم بالكفاءة والزعامة والتفوق.

والحقيقة أن فن المديح فى العصر الجاهلى كان فى بدء أمره إحساساً بفضيلة وشعوراً بيد، يدفع الشاعر إلى أن يمدح ويثنى على من قدم له المعروف أو أسدى إليه النعمة، كما نجد ذلك فى قول امرئ القيس يمدح بنى تيم رهط المعلى:

أقر حشا امرىء القيس بن حجر  بنو تيم مصابيح الظلام

لأن المعلى أحسن إليه وأجاره، حين طلبه المنذر بن ماء السماء لقتله بنى أبيه. (١)

فلما نشأ النابغة الذبيانى (المتوفى سنة ١٨ قبل الهجرة) مدح الملوك، وقبل الصلة على الشعر، وتكسب من المديح مالا جسيماً حتى كان أكله وشربه فى صحاف الذهب والفضة، وأوانيه من عطاء الملوك. (٢). وتكسب زهير بن أبى سلمى بالشعر يسيراً مع هرم بن سنان، (٣) أما الأعشى فقد (جعل الشعر متجراً يتجر به نحو البلدان) (٤)، وأصبح -على يديه- حرفة خالصة للمنالة والتكسب، إذ لم يترك ملكاً ولا سيداً مشهوراً فى أنحاء الجزيرة إلا قصده ومدحه

---

(١) العمدة فى محاسن الشعر وآدابه ونقده لابن رشيق جـ١ ص٨٠ تحقيق محمد محيى الدين عبد الحميد. ط دار الجيل

(٢) انظر: العمدة لابن رشيق جـ١ ص٨٠

(٣) العمدة جـ١ ص٨١.

(٤) العمدة جـ١ ص٨١

وفخم شأنه معرضاً بالسؤال.[١]

كما ألح الحطيئة فى التكسب بالشعر حتى لم يترك أحداً يرجى منه نفع إلا مدحه طمعا فى نواله، أو هجاه يأساً من عطائه.

ومن ثم نستطيع أن نحدد أهم ألوان المديح ودوافعه -فى العصر الجاهلى- فيما يلى:

(أ)الإشادة بمكرمة قدمها أحد سادة القبائل إلى الشاعر نفسه، كما فى مديح امرىء القيس لبنى تيم رهط المعلى الذى ذكرناه فيما سبق.

(ب)الاشادة بمكرمة قدمها أحد سادة القبائل الى قبيلة الشاعر،كما فى مديح دريد بن الصمة ليزيد بن عبد المدان(سيد نجران)، و كان أنس بن مدركة الخثعمى و أحلافه من بنى الحارث بن كعب قد أغاروا على قوم دريد، فأسروا و سبوا، و استاقوا أموالا لأحد جيران الشاعر،و خلفوا ذلك بنجران، ولجأ دريد إلى نجران و مدح القوم مدحا حملهم على رد السبايا و فك الأسرى، فقال دريد يمدح يزيد بن عبد المدان:[٢]

مدحت يزيد بن عبد المدان فأكرم به من فتى ممتدح

اذا المدح زان فتى معشر فان يزيد يزين المدح

حللت به دون أصحابه فأروى زنادى لما قدح

---

(١)العصر الجاهلى. للدكتور شوقى ضيف ص٢١٢ دار المعارف.الطبعة السابعة عشرة.

(٢)الأغانى جـ ١٠ ص٣٧، ٣٨ مؤسسة جمال للطباعة و النشر

ورد النســـــاء بأطهارهـــــا و لو كان غيـــر يزيـــد فضـــح و فك الرجال، و كـــل امـــرىء إذا أصـــلح الله يومـــا صـــلح فهذا (مديح غير منكسب. ولكنه شكر على مـــأثرة، والغايـــة منـــه جماعية وليست فردية، فيه يعدد الشاعر الـــنعم التـــى أولاه إياهـــا الممدوح، والمكارم التى يتصف بها.) [١]، وهو شعر ســـهل تبـــدو عليه مظاهر الطبيعية والسذاجة، والحياة الفطرية البدوية بما فيهـــا من عادات وتقاليد.

(جـــ)وهناك مديح دفع إليه ميل الشاعر إلى السلام وحبـــه للخيـــر العام، ولعل فارس الميدان فى هذا اللون من المديح: زهير بن أبى سلمى المزنى الذى نظم قصيدة مطولة تحدث فيها عـــن الحـــرب بـــين عبس وذبيان وأشاد بالمصلحين اللذين قاما بالصلح بين القبيلتين، ومـــا بدر منهما من تكرم وتضحية، واستعداد لفض المنازعات حرصا علـــى السلام، ورغبة فى انتشار الأمن بين الجميع، كما فى قوله [٢]:

سعى ساعيا غيظ بن مرة بعـــدما

تبزل ما بين العشـــيرة بالـــدم[٣]

---

(١) فن المديح وتطوره فى الشعر العربى. أحمد أبو حاقة ص٦٢

(٢)جمهرة أشعار العرب لأبى زيد القرشـــى ص١٤٢ط دار الكتـــب العلميـــة. بيروت، وشرح ديوان زهير طبعة دار الكتب ١٩٤٤م.

(٣)الساعيان بالصلح هما هرم بن سنان والحارث بن عوف من بنى غيظ بن مرة، تبذل: تقطع وتشقق

فأقسمت بالبيت الذى طاف حولـــه
رجال بنوه من قــريش وجــرهم

يمينــاً لــنعم الســيدان وجــدتما
على كل حال من سحيل ومبرمِ(١)

تداركتما عبسا وذبيــان بعــدما
تفانوا ودقوا بينهم عطر منشم(٢)

وقد قلتما إن ندرك السلم واســعا
بمال ومعروف من الأمر نسلم

فأصبحتما منها على خير مــوطن
بعيدين فيها عن عقوق ومأثم(٣)

عظيمين فى عليا معد-هــديتما-
ومن يستبح كنزاً من المجد يعظم

فهذا المديح دفع إليه ميل الشاعر إلى السلام، وهو مــديح رزيــن رصين، يكاد يخلوا من المبالغة والتهويل.

(ج)وهناك مديح دفع إليه الرغبة فى الكســب والحظــوة بــالنوال

---

(١)السحيل: الحبل يفتل فتلا واحداً، والمبرم الذى يفتل فتلين أو ثلاثا، وهما استعارتان للضعف والقوة.

(٢)تفانوا: أى أفنى بعضهم بعضا، ومنشم: إمرأة عطارة غمس قوم أيديهم فى عطرها فقتلوا جميعاً.

(٣)العقوق: مقابلة معروف الوالدين والأقارب بالجزاء السيئ.

(٤)عليا معد: زعماؤها وهم بنو قريش، هديتما: دعاء لهما بالهداية

والعطاء، وقد كثر هذا اللون من ألوان المديح فى العصر الجاهلى كثرة مفرطة (إذ رغب به الشعراء إلى الملوك والأشراف يمتارون به، ويرجعون إلى أهليهم بجزيل الحقائب ويظهر أن المناذرة خاصة كانوا يتخذونه وسيلة للدعاية لهم فى القبائل، فكثر الشعراء حولهم وأخذ يموج به بلاطهم منذ عمرو بن هند، فقد قصده كثيرون من أمثال: المثقب العبدى الذى لجأ إليه يمدحه بعد إيقاعه بقبيلته، ومما رحل إليه المتلمس،والممزق العبدى،وطرفه،والمسيب بن علس)[١]

واصبح المديح حرفة للتكسب على يد كثيرين من شعراء هذا العصر، من أبرزهم النابغة والأعشي والحطيئة. ولعل من شواهد هذا اللون قصيدة النابغة الذبيانى فى مدح النعمان ملك الحيرة، حيث مدحه واعتذر إليه فى قصيدة مطلعها: [٢]

يا دار ميّة بالعلياء فالسند

أقوت،وطال عليها سالف الأبد[٣]

وفيها يقول [٤]:

ولا أرى فاعلا فى الناس يشبهه

ولا أحاشى من الأقوام من

---

(١)العصر الجاهلى. للدكتور شوقى ضيف ص٢١١.

(٢)ديوان النابغة الذبيانى (تحقيق وشرح كرم البستانى) ص٣٠ ط دار صادر بيروت

(٣)مية: اسم امرأة، العلياء: مكان مرتفع من الأرض، أقوت: خلت من أهلها. سالف الأبد: ماضى الدهر.

(٤)ديوان النابغة الذبيانى ص٣٣ تحقيق وشرح كرم البستانى.

مزرد بن ضرار وقد عزاه إلى مزينة: (١)

ألا أبلغا هـذا المعـرض آيـة أيقظان قال القول إذ قال أوحلـم(٢)

أعيرتنى عزاً عزيزاً ومعشـراً كراما بنو إلى المجد فى بـاذخ

هم الأصل منى حيث كنت وإننـى من المزنيين المصفين بـالكرم

و أم كعب: امرأة من بنى عبد الله بن غطفان، يقال لها: كبشة بنت عمار بن عدى بن سحيم، وهـى أم سـائر أولاد زهيـر (٤)، وقـد تزوجها زهير فوق زوجته الأولى (أم أوفى) التى ذكرها فى مطلـع معلقته المشهورة: (٥)

أمنْ أم أوفى دمنةٌ لم تكلمّ بحومانةِ الدراج فالمتثلم(٦)

ويبدو أن المعيشة لم تستقم بينهما فطلقها بعد أن ولدت منه أولاداً ماتوا جميعا ثم ندم على طلاقها، وقال فيها: (٧)

لعمـرك والخطـوب مغيـرات وفى طول المعاشرة التقـالى

---

(١)طبقات فحول الشعراء. السفر الأول ص١٠٦، ١٠٧، وشرح ديوان كعب بن زهير وفيه أنه مكان آية، و(أم حلم) بدل (أوحلم)

(٢)ربما أراد الشاعر بقوله آية: رسالة منى أو خبراً عنى

(٣)الأشم: ذو الإباء والرفعة والسيادة، والباذخ: العالى والرفيع.

(٤)الأغانى جـ١٧ ص٨٢ تحقيق على محمد البيجاوى ط مؤسسة جمال للطباعة والنشر ١٣٨٩هـ - ١٩٧٠م.

(٥)الأغانى جـ١٠ ص٢٨٦ (مصور عن طبعة دار الكتب)، وأنظر: جمهرة أشعار العرب ص١٣٩

(٦)دمنة: ما أسود من آثار الديار، حومانة: الأرض الغليظة وجمعها: حوامين، الدراج والمتثلم: موضعان.

(٧) الأغانى جـ١٠ ص٣١٣

لقد باليت مظعون أم أوفى ولكن أم أوفى ما تبالى

والثانية التى تزوجها من بعدها هى كبشة بنت عمار الغطفانية، وهى أم أولاده: كعب، وبجير وسالم، وقد مات سالم فى حياة أبيه ورثاه ببعض شعره.[١]

**حياته:**

لم تستطع المصادر الأدبية – التى بين أيدينا – أن تكون لنا صورة واضحة المعالم لحياة كعب بن زهير، فلم تذكر شيئا عن تاريخ مولده، وكل الذى ذكرته أنه عاش مع والده (زهير بن أبى سلمى) فى ديار بنى غطفان حيث أقام فى الحاجر من ديار نجد[٢]

ويبدو أن شاعرنا قد ولد فى ديار قوم أمه، وتأثر بهم حتى صار كأنه واحد منهم (يشترك فى جميع مآتيهم حربا وسلماً، وقد رثى ربيعة بن مكدم الكنانى لصلته بقوم أمه)[٣]

كما أن سيرته الشخصية لم تشر إليها المصادر الأدبية بشئ يوضح تفاصيلها، وكل الذى ذكرته من تلك السيرة يوحى إلى القول بأن كعبا كان –قبل اسلامه – رجلا محارفاً مملقاً لا ينمى له مال[٤]،

---

(١)أنظر شعر زهير فى رثاء أبنه سالم فى:الأغانى جـ١٠ص٣١٣، ٣١٤، ٣١٥.

(٢)انظر: الأغانى جـ١٠ ص٣٠٩، والأعلام للزركلى جـ٣ ص٥٢.

(٣)الروائع. كعب بن زهير. فؤاد أفرام البستانى ص٦٩ ط ثانية سنة ١٩٥٣.

(٤)مقدمه شرح ديوان كعب بن زهير. صنعة الإمام أبى سعيد السكرى ص(ف).

وكان يحالفه ابداً إقتار وسوء حال[١]، وقد انعكس ذلك على شعره، فرآيناه كثيرا ما يشكو دهره، ويتأفف من غيره وأحداثه وتقلباتـــه، ويعزو ما هو فيه من حال سيئة إلى شؤم جده[٢]، وسوء طالعـــه، كما فى قوله [٣]:

لعمرك لولا رحمـــة الله إننـــى  لأمطو بجد ما يريـــد ليرفعـــا[٤]

فلو كنت حوتا ركـــض المـــاء  ولو كنت يربوعا سرى ثم قصعا[٥]

إذا ما نتجنا أربعا عـــام كفـــأة  بغاها خنا سير فأهلك أربعـــا[٦]

إذا قلت إنى فى بـــلاد مضـــلة  أبى أن ممسانا ومصبحنا معا[٧]

فالشاعر -فى هذه الآبيات -يشكو حظه الذى لا ينهض مع عثـــرة أبداً، ويلازمه النحس دائماً فلو كان حوتاً فى البحر لسكن الماء فيه وركد، ولو كان يربوعاً لأقفل عليه جحره، ويدلل الشاعر على شؤم جده، بأنه إذا نتج له أربع نوق أتت الدواهى فأهلكتهن حتى لا يبقى له شىء، و كلما ظن انه تخلص من حظه المشؤوم فى بلاد يهتدى

---

(١)الشعر والشعراء. لابن قتيبة ص٣٣ ط أولى. عالم الكتب. بيروت سنة١٢٨٢هـ

(٢)مقدمة شرح ديوان كعب بن زهير صنعة أبى سعيد السكرى ص(ف)

(٣)شرح ديوان كعب بن زهير ص٢٢٧

(٤)أمطو: آخذ وأمد، الجد: الحظ

(٥)ركض: يقال أرتكض الماء فى البئر إذا اضطرب، ولعله يريد: ركد بمعنى سكن وتوقف عن الحركة. وقصع: أى دخل القاصعاء: جحر اليربوع

(٦)بغاها: قصدها معتدياً، والخناسير: الدواهى والمصائب.

(٧)بلاد مضلة: أى لا يهتدى لها

لها،فوجئ بالشؤم يلاحقه و يلازمه صباحا و مساء.

و مما لا شك فيه ان تضيق الحياة عليه، و قسوتها التى لـم يكـن يعرف لها سببا قد خلفا فى نفسه برما منها، واديا بالتالى الى قسوة فيه نلحظها فى (فظاظة الطباع عنده، و جفوة المعاشرة،حتى نكـاد نحس بان كعبا كان بدويا فظا،غليظ القلب،نافر الطبـاع، يثـور و ينتفض لأدنى ملاحظة، ربما لا يكون لها أساس أو حقيقة، و لكنـه يتوهمها و يستشعرها نتيجة لذلك الوضع الذى يجد نفسه فيه ) [١]

و لعل خير دليل على ذلك حادثة أخيه بجير و إرسال زهير بفـرس كعب إلى زيد الخيل لقاء إكرامه لمثوى ابنه و اعتنائه به، و غضب كعب لفقدانه فرسه،و ملاحاته لأبيه، و هجائه لزيـد، و محاولتـه إيقاع الشر بين رهط زيد و رهط بنى ملقط أنسيائه، وذلك من اجل فرس وهبها أبوه لقاء معروف أسدى إليه [٢].

و ما من شك في أن قسوة الحياة على كعب، و بالتالي قسوة طباعه قد طبعا شعره بطابع الخشونة و الغلظة، حتى في شـعره الغزلـي الذي يستوجب رقة في العواطف، و لينا في الطبائع، و عذوبة فـي الكلمات، حيث لا نجد فيه(إلا حديثا عن المشاكسة و النفور، وحديثا عن الوعود التي لا تصدق، و الأماني التـي لا تتحقـق، وعتابـا

---

(١)مقدمة ديوان كعب بن زهير(شرح و دراسة الدكتور مفيد قميحة ) ص ٢٦

(٢)انظر: الأمالى. لأبى على القالى ص٢٥ ط دار الكتب العلمية، و شرح ديوان كعب بن زهير ص ١٢٦

يتجاوز اللوم إلى حد القطيعة و الهجران.) [١]

هكذا كانت حياة كعب بن زهير في جاهليته،لكن حياته تشهد منعطفا أساسيا و هاما، فقد قدر له أن يشهد بزوغ فجر الإسلام، و يتشرف بلقاء الرسول عليه الصلاة و السلام،و يؤمن بدعوته المباركة التي نقلت العرب من الجاهلية الجهلاء إلى نور الحق و الإيمان،و الهداية والسلام.

**إسلامه:**

و يمكننا أن نلقي الضوء على إسلام كعب(رضي الله عنه)، لما له من صلة بشعره بعامة، و مديحه على وجه الخصوص.

تبدأ قصة إسلام كعب منذ حياة أبيه زهير بن أبي سلمى، حيث يروي من خبره_كما ذكر صاحب الأغاني _ [٢]أنه رأى في منامه آتيا أتاه، فحمله إلى السماء حتى كاد يمسها بيده، ثم تركه فهوى إلى الأرض،فلما احتضر قص رؤياه على ولده، و قال:إني لا أشك أنه كائن من خبر السماء بعدي شيء،فإن كان فتمسكوا به و سارعوا إليه

و يروى أن كعبا و أخاه بجيرا خرجا في غنمهما يوما فبلغا ماء لبني أسد، يعرف بابرق العزاف، و قد جرى حديث الدين الجديد

---

(١)الأغاني جـ١٧ ص ٨٨ تحقيق علي محمد البجاوي ط مؤسسة جمال للطباعة و النشر.

بينهما،فقال كعب لأخيه بجير:الحق الرجل و أنا مقيم ها هنا، فانظر ما يقوله لك،فسار بجير إلى الرسول صلى الله عليه و سلم، و سمع منه، فأعجبه الدين الجديد، فأسلم[١]، وقد شهد بجير بن زهير فتح مكة، و حنين، و الطائف في السنة الثامنة للهجرة. أما كعب فإنه حين علم بإسلام أخيه بجير غضب و ثار، و راح يقول الشعر في هجاء المسلمين، و أرسل أبياتا إلى أخيه يعاتبه فيها و يؤنبه،كقوله: [٢]

من مبلغ عني بجيرا رسالة  فهل لك فيما قلت بالخيف هل
شربت مع المأمون كأسا روية  فأنهلك المأمون منها و علكا[٣]
و خالفت أسبابا الهدى و تبعته  على أي شيء ويب غيرك.دلكا
على خلق لم تلف أما و لا أبا  عليه و لم تدرك عليه أخا لكا
فإن أنت لم تفعل فلست بآسف  و لا قائل إما عثرت لعا لكا[٤]

فلما أتت بجيرا كره أن يكتمها رسول الله صلى الله عليه وسلم، فأنشده إياها، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم -لما سمع سقاك بها المأمون-:"صدق وإنه لكذوب أنا المأمون"،ولما سمع:على خلق

---

(١)انظر: الأغاني جـ١٧ ص٨٨

(٢)السيرة النبوية.لابن هشام (المجلد الثاني) جـ٤ ص ٢٨٠ تحقيق محمد شحاتة إبراهيم ط دار المنار سنة ١٩٩٠

(٣)أنهلك:سقاك النهل وهو الشرب الأول،وعلك:سقاك العلل وهو الشرب الثانى

(٤)لعالك: دعاء للعاثر بالإقالة من عثرته .

لم تلف أما ولا أبا عليه قال:" أجل لم يلف عليه أباه ولا أمه "[١]

وقد أصدر رسول الله صلى الله عليه وسلم توعده لكعب بعد أن وصلته قصائده فى هجاء الإسلام والمسلمين، فقال: ( من لقى منكم كعب بن زهير فليقتله"[٢]

وقام بجير بالرد على كعب يحذره من الغلوّ فى معاداته للإسلام والمسلمين، ويبرأ من عقائد الجاهلية، ويدعوه إلى الدين الجديد قائلا[٣]

من مبلغ كعبا فهل لك فى التى تلوم عليها باطلا وهى أحزم

إلى الله،لا العزى ولا اللات،وحده فتنجو، إذا كان النجاء، وتسلم

لدى يوم لا ينجو وليس بمفلت من الناس إلا طاهر القلب مسلم

فدين زهير وهو لا شئ دينه ودين أبى سلمى علىَّ محرمَ

فلما بلغ كعبا الكتاب – كما يقول ابن هشام – ضاقت به الأرض، وأشفق على نفسه بعد أن تيقن من وعيد الرسول له، والتجأ إلى مزينة لتجيره، فأبت عليه ذلك، فلما لم يجد من شىء بدأ قال قصيدته التى يمدح فيها رسول الله صلى الله عليه وسلم، وذكر فيها خوفه وإرجاف الوشاة به من عدوه، ثم خرج حتى قدم المدينة وذلك فى السنة التاسعة من الهجرة، فنزل على رجل كانت بينه وبينه معرفة من جهينة، فغدا به إلى رسول الله صلى الله عليه

---

(١) السيرة النبوية. لابن هشام جـ٤ ص٢٨٠.

(٢) الأغانى جـ١٧ ص٨٦ (تحقيق على محمد البجاوى)

(٣) السيرة النبوية. لابن هشام جـ٤ ص٢٨٢ ط دار المنار

وسلم، فقال:هذا رسول الله فقم إليه فاستأمنه.. فقام إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فوضع يده فى يده – وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم لا يعرفه – فقال: يا رسول الله إن كعب بن زهير قد جاء ليستأمن منك تائبا مسلما، فهل أنت قابله إن أنا جئتك به؟ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: نعم، قال: يا رسول الله أنا كعب بن زهير.

فوثب عليه رجل من الأنصار، فقال: يا رسول الله دعنى وعدو الله أضرب عنقه، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: دعه عنك، فإنه قد جاء تائبا نازعاً عما كان عليه.. فغضب كعب على هذا الحى من الأنصار لما صنع به صاحبهم، وذلك أنه لم يتكلم فيه رجل من المهاجرين إلا بخير[١]

وأنشد كعب بن زهير الرسول صلى الله عليه وسلم قصيدته الرائعة (بانت سعاد)، فكانت مفتاح الخير ونافذة الضوء التى استمد منها شعراء العربية أقباس المدائح النبوية فى رصدهم للشمائل المحمدية، وصارت نمطا يحتدى فى مديح الرسول صلى الله عليه وسلم.

وقد حسن إسلام كعب، وأخذ يستلهم – فى شعره – قيم الإسلام ومثله وفضائله كما سنبين ذلك فى موضعه إن شاء الله تعالى.

---

(١)السيرة النبوية لابن هشام جـ٤ ص٢٨١ تحقيق محمد شحاته إبراهيم ط دار المنار

**شاعريته وبواعثها:**

كان كعب بن زهير شاعراً موهوباً، مطبوعا على إبداع الشعر ونظمه، وقد انعقد إجماع الرواة على أن كعباً أحد الفحول المجودين فى الشعر، والمقدم فى طبقته.[١]

روى أنه قيل لخلف الأحمر: أيهما أشعر زهير أم ابنه كعب ؟ فقال: لولا قصائد لزهير أكبرها الناس لقلت: إن كعبا أشعر منه[٢]

وقد بلغ من شهرته فى الشعر أن الحطيئة قال له: قد علمت روايتى شعر أهل البيت، وانقطاعى إليكم، وقد ذهب الفحول غيرى وغيرك، فلو قلت شعراً تذكر فيه نفسك، وتضعنى موضعا، فإن الناس لأشعاركم أروى وإليها أسرع، فقال كعب:

فمنْ للقوافى شانها مَنْ يحوكها إذا ما ثوى كعب وفوز جرول[٣]

فتيك لا تلقى من الناس واحداً تنخل منها مثل ما يتنخل[٤]

ثقفها حتى تلين متونها فيقصر عنها كل ما يتمثل[٥]

ولعل من أسباب شاعرية كعب:

(أ) موهبته الفطرية واستعداده الشخصى: فقد نشأ كعب مفطوراً على

---

(١) مقدمته شرح ديوان كعب بن زهير.صنعة الإمام أبى سعيد السكرى ص(ن)

(٢) الشعراء والشعراء لابن قتيبة ص٢٤ عالم الكتب ط أولى سنة ١٢٨٢هـ، وانظر: خزانة الأدب جـ٩ ص١٥٣

(٣) القوافى: القصائد، شأنها: عابها، ثوى: مات، فوز: هلك، جرول: الحطيئة

(٤) تنخل الشىء: اختاره وأصطفاه

(٥) يثقفها: ينقحها ويهذبها ويسويها

نظم الشعر منذ صباه، ولعل مما يدل على تأصل الموهبة الشعرية فى نفسه ما رواه صاحب (الأغانى) من أن زهيراً قال (بيتا ونصفا ثم أكدى[١] فمر به النابغة فقال له: يا أبا أمامة أجز، فقال: وما قلت ؟ قال: قلت:

تزيد الأرض إما متّ خفا وتحيا إن حييت بها ثقيلا

نزلت بمستقر العز منها

أجز، قال: فأكدى والله النابغة، وأقبل كعب بن زهير وإنه لغلام، فقال أبوه: أجز يا بنى فقال: وما أجيز؟ فأنشده، فأجاز النصف بيت فقال:

وتمنع جانبيها أن يزولا

فضمه زهير إليه، وقال: أشهد أنك ابنى )[٢]

**(ب) بيئته وشيوع الشعراء فى أسرته:**

مما لا شك فيه أن للبيئة أثرها القوى فى الأدب بعامة وفى فن المدح بخاصة، فمن البيئة يستمد الشاعر معانيه، ويستنبط أفكاره، ويختار مادة مديحه، ومن مشاهدها يتخذ تشبيهاته وأوصافه.

بل إن البيئة تعد من أهم العوامل المؤثرة فى الأدب، الخالقة لبعض فنونه، المكونة لأكثر عناصره، حيث تخلع عليه ألوانها، وتهب له مظاهرها وسماتها.

وكعب بن زهير ينتمى إلى بيت من بيوتات الشعر التى تألقت فى الجاهلية، إذ كان سليل بيت شعرى أصيل، له قدم وسبق فى نظم

---

(١) أكدى: امتنع عليه القول فلم يستطع إتمام البيتين

(٢) الأغانى جـ١٧ ص٨٣

الشعر، وترسيخ قوافيه، وأثر قوى فى صناعته وتهذيبه وتنقيحه.

فالرواة يتفقون على أن الشعر لم يتصل فى ولد أحد من فحول الشعراء فى الجاهلية اتصاله فى ولد زهير[١]

فكعب، وأبوه زهير،وجده أبو سلمى، وعمتاه (سلمى والخنساء)[٢]، وخال أبيه (بشامة بن الغدير) وابنا عمته (العوثبان وقريض)، وأخوه بجير، وولد كعب عقبة، وحفيده (العوام بن عقبة) هؤلاء كلهم شعراء.

وقد (ورث كعب عن أبيه ملكة الشعر)[٣]، حيث نشأ (فى روضة الشعر، وباحة القريض، فرسخت فيه ملكته، وتجملت فى صغره شاعريته، فأخذ يقرضه وهو دون المراهقة)[٤]

(ج) **صقل زهير لملكة كعب الشعرية:**

فقد كان زهير حريصا على صقل ملكة ابنه كعب الشعرية، وهذا الحرص كان يؤدى بزهير إلى ضرب ابنه كعب حين يقول الشعر وهو صغير، بل كان ينهاه مخافة أن يكون لم يستحكم شعره، فيروى له ما لا خير فيه، بل لقد شدد عليه فى المنع حتى الضرب والحبس، غير أن شاعرية كعب لم تكن لتضعف، إذ كان يصر على قرض الشعر، فرغبته ملحة، وعندما رأى زهير إصرار ابنه كعب على نظم الشعر اختبر قدرته وعندما أنس فيه القدرة على قرض

---

(١)انظر: طبقات فحول الشعراء. السفر الأول ص١١٠

(٢)هى غير الخنساء (تماضر) أخت صخر.

(٣)تاريخ الأدب العربى.كارل بروكلمان جـ١ص١٥٦دار المعارف ط الثالثة ١٩٧٤

(٤)تاريخ الأدب العربى: لأحمد حسن الزيات ص١٦٠، ١٦١

الشعر والتمكن من صياغته بما يرضى ذوقه ويوافق مذهبه صرح له بقول الشعر، وأطلق حريته فى نظمه[١]

**مذهبه الشعرى:**

يعد كعب امتداداً لمذهب أبيه زهير بن أبى سلمى، وهو المذهب الذى عرف فى الشعر الجاهلى بمذهب (عبيد الشعر)، حيث عمد شعراء هذا الاتجاه (إلى أسلوب الشعر يهذبونه، ويصقلون لفظه، بحذف غريبه أو متنافره، والحرص على انسجام موسيقاه، وتحرى مساواته، والتناسب بين فقره وجمله، ليكون جزلا حسن السبك، مع خلوه من التكلف الممقوت، والبديع المقصود، حتى صار الأسلوب الشعرى صنعة، أو فنا يقصد إليه، ويعنى بإحكامه وخلوه من الفضول اللفظى، والغلو المعنوى.) [٢]

ولعل خير شاعر يمثل هذا المذهب ويفسره فى العصر الجاهلى هو زهير (صاحب الحوليات)، فقد كان يأخذ شعره بالثقاف والتنقيح والصقل، وكأنه يفحص ويمتحن ويجرب كل قطعة من قطع نماذجه[٣]

وقد سار على مذهب زهير جماعة من الشعراء، تارة يكونون من أهل بيته مثل ابنه كعب، وتارة لا يكونون كالحطيئة، إذ كانوا (لا يلقون بالاً للارتجال، ولا يعبأون بعطاء القريحة لأول وهلة، بل

---

(١)انظر: مقدمة شرح ديوان كعب بن زهير. صنعة أبى سعيد السكرى ص ف وما بعدها، والأغانى جـ١٧ ص٨٣

(٢)الأسلوب: للأستاذ أحمد الشايب ص١٦٩ ط ثانية ١٩٩١م

(٣)الفن ومذاهبه فى الشعر العربى. للدكتور شوقى ضيف ص٢٤، ٢٥ الطبعة الثانية عشرة

يخضعون أنفسهم لفن الشعر، وأدواته من التثقيف والتهذيب والتنقيح والتحبير[١] ويذكر لنا الرواة الطريقة التى كان يخرج بها زهير تلاميذه من أهل بيته أو من غيرهم، إذ كان يحفظهم شعره وشعر غيره من الجاهليين، حتى تتضح موهبة الشعر فيهم، فقد ذكر صاحب (الأغانى) أن زهيرا كان يخرج بابنه كعب إلى الصحراء، فيلقى عليه بيتا أو شطراً ويطلب إليه أن يجيزه، تمرينا له وتدريبا على صوغ الشعر ونظمه[٢]

ولعل هذا الصقل لملكة كعب الشعرية (يؤكد حرص زهير على أن يكون كعب امتدادا لصوته الشعرى المتفنن، المحكم النسج، الرائع الديباجة) [٣] وهكذا كان كعب بن زهير امتدادا لمذهب أبيه فى تثقيف شعره وتنقيحه وتجويده.

أما عن فنون شعره، فهى كثيرة متنوعة، فقد قال الشعر فى الأغراض التى شاعت بين شعراء عصره، كالمديح، والوصف، والغزل، والرثاء، والهجاء، والفخر، والحكم.

وإن كنا نرى أن المديح والوصف هما أكثر ما برز فيه كعب من فنون الشعر وأغراضه، كما سنوضح فى الفصل التالى إن شاء الله تعالى

---

(١)فى الأدب الجاهلى دراسة ونقد. للدكتور على على صبح ص٧٩ الطبعة الثانية ١٤١٤هـ -١٩٩٤م

(٢)الأغانى جـ١٧ ص٨٣ وما بعدها

(٣)من مقال بعنوان (قصيدة البردة لكعب بن زهير )للدكتور صابر عبد الدايم، مجلة كلية اللغة العربية بالزقازيق.العدد العاشر ١٤١٠-١٩٩٠ (ص٥٥)

## الفصل الثانى

# مدح المهاجرين والأنصار فى شعر كعب بن زهير

للحكم على قيمة المدح فى شعر كعب بن زهير يجدر بنا أن نسلط الضوء – فى إيجاز – على المدح فى صدر الإسلام بعامة حتى نتبين اتجاه شاعرنا ومنزلته فيه.

## المدح فى صدر الإسلام:

المدح فن من الفنون الشعرية القديمة قدم الشعر الجاهلى، رافق قيثارة الشعر العربى منذ وجودها الأول، وقد تعددت ألوانه، وتنوعت دوافعه فى العصر الجاهلى، كما سبق أن ذكرنا. (١)

وقد جاء الإسلام وقد ألف الناس المدح والإثابة عليه، فأثاب النبى صلى الله عليه وسلم كعب بن زهير(٢) وغيره، ولم يعدل الخلفاء الراشدون عن سننه فيهما، وإنما كان ذلك منهم بمثابة إهداء، أو تكريم، أو أداء حق لابن سبيل، لا إغراء منهم بكسل، أو إذلال نفس، أو إسقاط مروءة.

قال عمر رضى الله عنه:(نعم ما تعلمته العرب الأبيات من الشعر يقدمها الرجل أمام حاجته) (٣)

---

(١)انظر ص من هذا البحث

(٢)ربما كانت المكافأة لإسلامه، أو لتأليفه إلى الإسلام ليزداد إيمانا بعد إسلامه، وربما لجودة شعره وروعة قصيدته (انظر: الأدب الإسلامى بين النظرية والتطبيق. للدكتور على على صبح جـ١ ص١٩٣)

(٣)الوسيط فى الأدب العربى، وتاريخه. للشيخ أحمد الإسكندرى والشيخ مصطفى عناتى ص١٥١ ط الثالثة

وقد (خلع النبى صلى الله عليه وسلم على كعب بردته، فبقيت فى أهل بيته حتى باعوها لمعاوية بعشرين ألف درهم، ثم بيعت للمنصور العباسى بأربعين ألفا) (١)

وبتتبع شعر المدح فى صدر الإسلام نلحظ أن تغيرا طرأ فى بعض صفات المديح التى كانت شائعة فى العصر الجاهلى اقتضته الحياة الإسلامية الجديدة بما فيها من قيم ومثل وفضائل، فقد حدث تبدل فى الشخصية العربية وتعديل فى القيم والمثل التى كان شعراء المديح -قبل الاسلام- يشيدون بها. ويبتغون بتمجيدها، من ذلك:

(أ)ذاب مفهوم الاعتداد بالقبيلة، وأصبح مفهوم الأخوة غير مقتصر على أبناء القبيلة الواحدة كما كان فى العصر الجاهلى، فقد تجاوز ذلك إلى كل من يدين بالإسلام مهما يكن موطنه أو لونه أو جنسه (إنما المؤمنون أخوة) ومن ثم طرأ بعض التحول فى مواقف الشعراء من ممدوحيهم.

(ب)جاء الإسلام بمناقب جديدة مستمدة من تعاليمه وقيمه كالتقوى، والصلاح، والجهاد فى سبيل الله، والقناعة، والرضا بقضاء الله، والصبر على البلاء وما إلى ذلك، واستبعدت أمور كانت فى العصر الجاهلى موضعا للفخار كالخمرة والزنا، والإغارة على الآمنين، والسلب والنهب، ولم يعد الطيش والجهل والقسوة والكبرياء من مظاهر السيادة والفتوة.

---

(١) خزانة الأدب. للبغدادى جـ٤ ص١٣ دار الثقافة بيروت

(ج)أصبح سفك الدماء والقتل ووأد البنات كبائر، فالإسلام (ليس عقيدة سماوية وفرائض دينية فحسب، بل هو أيضا سلوك خلقي قويم، إذ يدعو إلى طهارة النفس، ونبذ كل الفواحش والرذائل) [١]

(د)لم يعد الغنى والثراء -في ظل الإسلام- مجالاً للتفاضل بين الناس، بل إن أساس التفاضل: التقوى والعمل الصالح (إن أكرمكم عند الله أتقاكم) [٢]

(هـ)حافظت الشخصية الإسلامية على بعض الصفات العربية الأصيلة كالكرم، والضيافة، وحسن الجوار، والمروءة والإباء، والحلم والعفو، والعدل ، العفة، والشجاعة... ومن هنا طرأ بعض التغير على الصفات التي كان الشعراء المادحون يضفونها على ممدوحيهم.

وبتتبع شعر المدح في صدر الإسلام تبين ما يلي:

أولا: أن أكثر شعر المديح في عصر النبوة كان مديحاً لسيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم، وهو - كما نرى - لا يتنافى ونهي النبي صلى الله عليه وسلم عن تعظيمه، إذ كان هذا المديح -في معظمه- دفاعاً عن الدعوة الإسلامية وصاحبها عليه الصلاة والسلام، فهو بمثابة الجهاد بالكلمة لنشر الدعوة الإسلامية، وإحقاق الحق، وإبطال الباطل، وإسقاط مزاعم أهل الكفر والفساد والضلال.

---

(١) العصر الإسلامي. للدكتور ضيف ص١٥

(٢) سورة الحجرات الآية ١٣

وقد جاء فى عدة ألوان نحدد أهمها فيما يلى:

(أ)كثيرا ما يكون المدح مقترنا بهجاء الأعداء، والرد على مزاعمهم، والدفاع عن الإسلام، كما فى قصيدة حسان بن ثابت التى أنشدها يوم فتح مكة، ومطلعها[١]

عَفت ذاتُ الأصابع، فالجواء إلى عذراء منزلها خلاء[٢]

ومنها قوله يمدح النبى صلى الله عليه وسلم ويرد على أبى سفيان بن الحارث[٣]

هجوت محمداً وأجبت عنه وعند الله فى ذاك الجزاء[٤]

أتهجوه ولست له بكفء فشركما لخيركما الفداء

هجوت مباركا براً حنيفا أمين الله شيمته الوفاء[٥]

أمن يهجو رسول الله منكم ويمدحه وينصره سواء[٦]

---

(١)السيرة النبوية لابن هشام (تحقيق محمد شحاته ابراهيم) جـ٤ ص٢٢٦، وانظر: ديوان حسان بن ثابت( تحقيق الدكتور سيد حنفى حسنين) ص٧١، وفى الديوان: قبل فتح مكة.

(٢)عفت: درست، ذات الأصابع، الجواء: موضعان بالشام

(٣)السيرة النبوية لابن هشام جـ٤ ص٢٢٧، ديوان حسان بن ثابت ص٧٦ مع اختلاف فى ترتيب الأبيات وانظر: الاستيعاب فى معرفة الأصحاب. المجلد الأول ص٧٥١ (تحقيق طه عبد الرءوف سعد)

(٤)الجزاء: المكافأة على الشئ سواء أكان خيراً أم شراً

(٥)الحنيف: أصله المائل، مأخوذ من الحنف، والمراد بالحنيف هنا: المسلم لأنه مال عن الباطل إلى الحق.

(٦)يريد: أمن يهجو رسول الله ومن يمدحه سواء، بدليل الإخبار عنه بسواء التى لا يخبر بها إلا عن متعدد

فإن أبي ووالده وعرضي لعرض محمد منكم وقاء

فحسان بن ثابت في هذه الأبيات يمدح النبى صلى الله عليه وسلم، ويرد على أبى سفيان بن الحارث فى هجائه للرسول صلى الله عليه وسلم.

يقول حسان: يا هذا، هجوت محمدا، وما كان محمد ليلحقه هجاء، وأنا أجبت عنه لأننى لسانه، وسيف فى يمينه يرد على هجاء من يهجوه، وإذا كنت أنا قد أجبت عنه، فإن جزائى خير عند الله تعالى.

وتالله كيف تهجو محمداً ولست له بند، جعلت فداه أنت وأمثالك، وسواء أمدحتموه أم هجوتموه فإنكم لا ترفعون من قدره. ولا تخفضون من شأنه، فمقام محمد أكبر من مدحكم وهجائكم.

وليعلم الناس جميعا بأن حساناً، ووالد حسان، ووالد والده، وعرضه، وكل ما يملك وقاء لمحمد من كل قول خبيث دنئ.

وقد ورد أن حساناً أنشد النبى صلى الله عليه وسلم هذه القصيدة فلما أنتهى إلى قوله:

هجوت محمدا و أجبت عنه و عند الله في ذاك الجزاء

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:" جزاؤك على الله الجنة يا حسان

فلما انتهى إلى قوله:

فإن أبي ووالده وعرضي لعرض محمد منكم وقاء

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:" وقاك الله النار يا حسان"

فلما قال:

أتهجوه ولست له بند فشركما لخيركما الفداء

قال من حضر:" هذا أنصف بيت قالته العرب "[١]

ولعلنا نستدل بهذا على أن الكثرة الكاثرة من الشعراء المادحين للرسول صلى الله عليه وسلم – فى عصر النبوة– يهدفون من مديحهم إلى الدفاع عن الدعوة الإسلامية، وصاحبها عليه الصلاة والسلام، ودحض مزاعم أعداء الإسلام، وفى الوقت نفسه لم يكونوا يبتغون من مديحهم للرسول صلى الله عليه وسلم سوى جزاء الله ورضوانه، ويعدون هذا المديح من قبيل التقرب إلى الله سبحانه وتعالى.

وقد ذكر صاحب الأغانى (أن حسانا وكعبا كانا يعارضان هجاة النبى بمثل قولهم بالوقائع والأيام والمآثر، وبعيرانهم بالمثالب، و كان عبد الله بن رواحة يعيرهم بالكفر، وكان فى ذلك الزمان أشد القول عليهم قول حسان وكعب، وأهون القول عليهم قول ابن رواحة، فلما اسلموا وفقهوا الإسلام، كان أشد القول عليهم قول ابن رواحة) [٢]

(ب)وقد يكون المدح للرسول صلى الله عليه وسلم ممتزجا بالاعتذار، أعنى اعتذار الشاعر عما كان قد بدر منه قبل إسلامه، كما فى قصيدة " بانت سعاد" لكعب بن زهير [٣]

---

(١)انظر:أمالى المرتضى جـ١ ص٦٣٢ تحقيق أبو الفضل ابراهيم ط ١٩٥٤م

(٢)الأغانى جـ٤ ص١٣٨ ط دار الكتب، وانظر: الاستيعاب لابن عبد البر، المجلد الأول ص٧٥٤، ٧٥٥ ط دار الغد العربى للطباعة والنشر والتوزيع.

(٣)انظر: جمهرة أشعار العرب ص٢٨٢ دار صادر بيروت، والسيرة النبوية لابن هشام جـ٤ ص٢٨٢ط دار المنار وشرح ديوان كعب بن زهير (صنعة الإمام أبى سعيد السكرى)ص٦وما بعدها ط الدار القومية للطباعة والنشر

وكما فى قول أنس بن زنيم الديلمى – يوم أسلم – وكان يوم فتح مكة[١] – يمدح النبى صلى الله عليه وسلم ويعتذر إليه[٢] ويعلن توبته:

وما حملت من ناقة فوق رحلها أبر وأوفى ذمة من محمد[٣]

أحث على خير، وأسبغ نائلا إذا راح كالسيف الصقيل المهند[٤]

وأكسى لبرد الخال قبل ابتذاله وأعطى لرأس السابق المتجرد[٥]

ونبوا رسول الله أنى هجوته فلا حملت سوطى إلى يدى

فقد مزج الشاعر –هنا– مديحه بالاعتذار عما كان قد بدر منه فى جاهليته، وقد أضفى على الرسول صلى الله عليه وسلم صفات: البر، والوفاء بالعهد، والمبادرة إلى الخير، والكرم والجود..

(ج)ومن صور المدح فى عصر النبوة: المدح الخالص الذى دفع إليه الحب الجم لسيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم، والإعجاب بشمائله وأخلاقه.

كما في قول حسان بن ثابت[٦]

---

(١)الإصابة –لابن حجر. المجلد الأول ص٢١٢ (تحقيق طه عبد الرءوف سعد) ط دار الغد العربى)

(٢)السيرة النبوية. لابن هشام جـ٤ ص٢١٧، ٢٢٨

(٣)الذمة: العهد

(٤)أحث: أسرع، أسبغ: أكمل، نائلا: عطاء

(٥)الخال: ضرب من برود اليمن، ابتذاله: استعماله. المتجرد: أراد الفرس الذى يسبق الخيل.

(٦)ديوان حسان بن ثابت ( تحقيق الدكتور سيد حنفى حسنين ) ص٣٣٨

والله ربـــى لا نفـــارق ماجـــداً غـــف الخليقـــة ســـيد الأجـــداد
متكرما يـــدعو إلـــى رب العـــلا بذل النصـــيحة رافـــع الأعمـــاد
مثل الهلال، مباركـــا ذا رحمـــة سمح الخليقـــة طيـــب الأعـــواد

فحسان في هذه الابيات يمدح الرســـول صـــلى الله عليـــه و ســـلم بالعفة،و شرف المحتد،و بذل النصيحة للامة، و رفع لواء الدين،و جمال الخلقة، والبركة و الرحمة، و سماحة الاخلاق.

و لعلنا نلحظ أن حسانا يضفي على الرسول صلى الله عليه و ســـلم المحاسن الخلقية و الفضائل النفسية من منظور إسلامي خالص.

و مثل قول عباس بن مرداس يمدح النبي صلى الله عليه و سلم[١]:

يا خـــاتم النبـــآء إنـــك مرســـل بالحق كل هدى الســـبيل هـــداكا
إن الإلـــه بنـــي عليـــك محبـــة فـــي خلقـــه، ومحمـــدا ســـماكا

و ما من شك في أن المديح النبوي يعد (اسمى صور المـــدح فـــي الأدب العربي و اصدقه في المشاعر،و اقوى عاطفـــة،لأن الشـــاعر يعبر فيه عن حب صادق، و مشاعر روحية فياضة إبتغاء مرضـــاة الله عز و جل،و محبة في رسوله صلى الله عليه و سلم،لا طمعا في عطاء،أو رغبة في مكافأة أو فى غرض دنيوى زائل). [٢]

ثانيا: وإلى جانب مدح النبى صلى الله عليه وسلم – فى عصر صدر

---

(١)السيرة النبوية.لابن هشام(تحقيق محمد شحاتة إبراهيم) جـ٤ ص ٢٥٣
(٢)الأدب الإسلامى بين النظرية والتطبيق.للدكتور على على صبح جـ٣ص٣٢

الإسلام – قد نجد المدح لصحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم، وقد تجلى فى اتجاهين واضحين:

الأول: مدح أحد الصحابة أو إن شئت فقل مدح صحابى بذاته، كما فى مدح كعب بن زهير لأمير المؤمنين على بن أبى طالب[١] رضى الله عنه وكما فى قول الأباء بن قيس الأسدى ( شاعر مخضرم ) يمدح خالد بن الوليد[٢] رضى الله عنه.

لن يهزم الله قوما أنت قائدهم  يا بن الوليد ولن يسعى بك الدبر[٣]
كفاك كف عذاب عند سطوتها  على العدو، وكف مرة غفر

ولعلنا نلحظ أن الشاعر –هنا– يضفى على خالد بن الوليد صفات: الشجاعة، والانتصار فى المعارك، والشدة مع الأعداء واللين مع الأصدقاء.

وأكثر هذا المديح إنما كان لأبطال الصحابة الذى عرفوا بمواقف مشهورة فى الدعوة الإسلامية، ونشرها، والدفاع عنها ضد أعدائها، أو الذين أبلوا فى ميادين الجهاد بلاء حسنا.

الثانى: مدح الصحابة قاطبة، وأكثر ما يكون هذا المديح حين يستدعيه موقف خاص، أو مناسبة طرأت، كقول حسان بن ثابت أمام وفد بنى تميم –الذى قدم لمبايعة النبى صلى الله عليه وسلم فى العام التاسع للهجرة – يرد على شاعر الوفد "الزبرقان بن بدر"

---

(١) شرح ديوان كعب بن زهير ( صنعة الإمام أبى سعيد السكرى ) ص٢٥٤

(٢) الإصابة. لابن حجر. المجلد الأول ص٢٩٣ ط دار الغد العربى.

(٣) الدبر: الظهر، وهو يريد: الهزيمة فى القتال

مادحاً الصحابة رضى الله عنهم مدحاً رائعا يقول فى تضاعيفه[١]

إن الذوائب من فهر وأخـوتهم قد بينوا سنة للنـاس تتبـع[٢]

يرضى بها كل من كانت سريرته تقوى الإله وبالأمر الذى شرعوا[٣]

قوم إذا حاربوا ضروا عـدوهم أو حاولوا النفع فى أشياعهم نفعوا

لا يرقع الناس ما أوهت أكفهـم عند الدفاع ولا يوهون ما رقعوا[٤]

لا يجهلون وإن حاولت جهلهـم فى فضل أحلامهم عن ذاك متسع

ولعلنا نلحظ أن شعر المدح فى صدر الإسلام قد اتسم بجزالة الالفاظ ووضوحها، وبعدها عن الحوشى والغريب والمبتذل، كما تجلى فيه جمال السـبك وعذوبتـه وإشـراق الديباجـة، وعمـق المعـانى واستقصاؤها وظهور المعانى الإسلامية، وغلبة العاطفـة الدينيـة، والتأثر الواضح بالقرآن الكريم والحديث الشريف.

---

(١)ديوان حسان بن ثابت ( تحقيق الدكتور سيد حنفى حسنين ) ص٢٣٨ دار المعارف ١٩٨٣

(٢)الذوائب: جمع ذؤابة وهى أعلى الشىء، والمراد السادة والأعيان والعظماء، فهر: المراد قريش وبنوتهم: المراد الأنصار.

(٣)السريرة: ما يكتم عن الناس، وما يستكن فى الضمير من الإحساس والشعور والاتجاه.

(٤)يرقع: مضارع رقع الثوب إذا أصلحه، وأوهى: أفسدت، الدفاع أى الزحام فى شئون الحياة وميادينها.

**مدح المهاجرين والأنصار فى شعر كعب:**

يعد كعب بن زهير من أبرز شعراء المدح فى صدر الإسلام، حيث مدح الرسول صلى الله عليه وسلم ومدح المهاجرين من أصحابه (القرشيين)، كما مدح الأنصار أيضا فى قصائد ومقطوعات تعد من أجود ما جادت به قريحة الشاعر.

ويلحظ قارئ كعب أن الشاعر قد أولى هذا المديح عناية كبيرة واهتماماً واضحا، حيث تعددت صور المديح، وتنوعت ألوانه، وسمت دلالاته، ونمت عن شخصية الشاعر وعبقريته، ولاءمت أساليبه وصوره مقام الممدوح، كما سنرى ذلك فى موضعه إن شاء الله تعالى.

**أولا: مدح المهاجرين:**

**(أ) مدح الرسول صلى الله عليه وسلم:**

مدح كعب بن زهير الرسول صلى الله عليه وسلم فى قصيدته الرائعة ( بانت سعاد) التى ألقاها الشاعر بين يدى الرسول صلى الله عليه وسلم وفى مسجده، وأعلن فيها إسلامه وتوبته، وخلع الرسول صلى الله عليه وسلم عليه بردته، ولقيت قصيدته من أجلها بالبردة، واكتسى بها كعب حلة مجد لا يبلى.

وقد آثرت أن أثبت القصيدة كاملة حتى نتبين فيها منهج الشاعر فى بناء قصيدته فى مدح المهاجرين، وحتى يتسنى لنا أن نوازن بين منهجه فى مدح المهاجرين ومنهجه فى مدح الأنصار، إلى ما هنالك من ملاحظات تستحق المناقشة.

يقول كعب بن زهير*

(أ) حبيبة بائنة وقلب متبول

بانت سعاد، فقلبى اليوم متبــول متيم إثرها، لم يفــد، مكبــول[١]

وما سعاد، غداة البين، إذ رحلوا إلا أغن غضيض الطرف،مكحول[٢]

هيفاء مقبلة، عجــزاء مــدبرة لا يشتكى قصر منها، ولا طول[٣]

تجلو عوارض ذى ظلم إذا ابتسمت كأنه منهــل بــالراح معطــول[٤]

شجت بذى شيم من ماء محنية صاف بأبطح،أضحى وهو مشــمول[٥]

تنفى الرياح القذى عنه، وأفرطه من صوب سارية بيض يعاليل[٦]

---

* جمهرة أشعار العرب لأبى زيد القرشى ص٣٦٥ وما بعدها (تحقيق على فاعور) دار الكتب العلمية بيروت والسيرة النبوية لابن هشام جـ٤ ص٢٨٢ (تحقيق محمد شحاته ابراهيم ) ط دار المنار للنشر والتوزيع وشرح ديوان كعب بن زهير (صنعة الإمام أبى سعيد السكرى) ص٦ وما بعدها، مع اختلاف فى بعض الروايات

(١)بانت: فارقت، متبول: هائم اسقمه الحب، متيم: مذلل بالحب، المكبول: المقيد الأسير

(٢)غداة البين: صبيحة الفراق، الأغن: الذى فى صوته غنه، غضيض الطرف: فاتر النظر

(٣)هيفاء: ضامرة البطن والخصر، والعجزاء: ضخمة العجز، وهذا البيت لم يرد فى ديوان الشاعر.

(٤)العوارض: الأسنان التى تظهر عند الضحك، الظلم: ماء الأسنان وبريقها، الراح: الخمر

(٥) شجت: مزجت، ذو الشيم: البارد، المشمول: الذى ضربته ريح الشمال

(٦)أفرطه: ملأه، الصوب: المطر، السارية: السحابة التى تمطر ليلا، اليعاليل: جمع يعلول: السحابة الطويلة.

(ب)واقع مؤلم وأمل يائس

أكرم بها خلة، لو أنها صدقت  موعودها أو لوان النصح مقبول[١]

لكنها خلة قد سيط من دمها  فجع، وولع، وإخلاف، وتبديل[٢]

فما تدوم على حال تكون بها  كما تلون فى أثوابها الغول[٣]

ولا تمسك بالعهد الذى زعمت  إلا كما يمسك الماء الغرابيل[٤]

فلا يغرنك ما منت، وما وعدت  إن الأمانى والأحلام تضليل[٥]

كانت مواعيد عرقوب لها مثلا  وما مواعيدها إلا الأباطيل[٦]

أرجو وآمل أن تدنو مودتها  وما إخال لدينا منك تنويل[٧]

(ج)الناقة المسافرة فى دروب الخوف والرجاء

أمست سعاد بأرض لا يبلغها  إلا العتاق النجيبات المراسيل[٨]

---

(١)الخلة: الصديقة، والموعود: الوعد

(٢)سيط:خلط، الفجع:الإصابة بما يكره،الولع:الكذب،الإخلاف:عدم الوفاء بالوعد

(٣)الغول: حيوان خيالى كانت العرب تخافه لأنه يغتالهم – على زعمهم، أو ساحرة الجن تضلل من يتبعها

(٤)ولا تمسك: أى لا تتمسك، زعمت: المراد ادعت الوفاء به.

(٥)فلا يغرنك: أى لا يخدعنك، ما منت: أى ما منتك به من الوصل، تضليل: تضييع وإبطال

(٦)عرقوب: رجل من يثرب يضرب المثل بإخلافه الوعد

(٧)تدنو: تقرب، إخال: أظن، التنويل: العطاء، والمراد هنا: الوصل. وقد ورد هذا البيت فى الديوان على هذه الصورة:

أرجو وأمل أن يعجلن فى أبد * وما لهن طوال الدهر تعجيل.

(٨)العتاق:أى النوق العتاق وهى الكرام الأصول،النجيبات:السريعات:المراسيل: السهلة اليدين فى السير

ولـــن يبلغهـــا إلا عـــذافرة لها على الأين إرقال وتبغيـل[١]

من كل نضاخة الذفرى إذا عرقـت عرضتها طامس الأعلام مجهول[٢]

ترمى الغيوب بعينى مفرد لهـق إذا توقدت الحـزان والميـل[٣]

ضخم مقلـدها، فعـم مقيـدها فى خلقها،عن بنات الفحل، تفضـيل[٤]

غلباء، وجناء، علكوم، مـذكرة فى دفها سعة، قـدامها ميـل[٥]

وجلدها مـن أطـوم لا يؤيسـه طلح بضاحية المتنيين، مهـزول[٦]

حرف أبوها أخوها من مهجنـة وعمها خالها، قوداء، شـمليل[٧]

يمشي القراد عليهـا،ثم يزلقـه منها لبان، و اقراب زهاليـل[٨]

---

(١)العذافرة: الصلبة القوية، الأين: التعب والإعياء، الإرقال: سير سريع، التبغيل: سير البغال

(٢)نضاخة: كثيرة رشح العرق، الذفرى: ما تحت أذن الناقة مما يلى الرقبة، عرضتها: اهتمامها ومقدرتها

(٣)الغيوب: آثار الطريق التى غابت معالمها عن العيون. المفرد: المنفرد أراد به الثور الوحشى الذى تفرد فى الصحراء، لهق: شديد البياض، الحزان: الأماكن الغليظة الصلبة من الأرض، الميل: الكثبان من الرمال.

(٤)المقلد:موضع القلادة وهو العنق،وفعم:أى ممتلئ،والمقيد:موضع القيد وأراد:الرجل

(٥)غلباء: غليظة الرقبة، وجناء: عظيمة الوجنتين، علكوم: ضخمة، قدامها ميل: يعنى طويلة العنق

(٦)الأطوم: السلحفاة البحرية، وقيل: سمكة غليظة الجلد، يؤيسه: يؤثر فيه، الطلح: القراد، ضاحية المتنين: ما برز للشمس من ظهرها، ومهزول صفة لطلح أى قراد مهزول

(٧)الحرف: الناقة الضامر، قوداء:طويلة العنق،شمليل:خفيفة سريعة.

(٨)القراد : دويبة تتعلق بالبعير وغيره، اللبان:الصدر، الأقراب: الخواصر، زهاليل: ملساء.

عيرانة قذفت بالنحض عن عرض مرفقها عن ضلوع الزور مفتول[١]

كأنما فات عينيها و مذبحها من خطمها ومن اللحيين برطيل[٢]

تمر مثل عسيب النخل،ذا خصل في غارز لم تخونه الأحاليل[٣]

قنواء في حرتيها،للبصير بها عتق مبين،و في الخد ين تسهيل [٤]

تخدي على يسرات، و هى لاهية ذوابل،و قعهن الأرض تحليل[٥]

سمر العجايات يتركن الحصى زيما و لا يقيها رؤوس الأكم تنعيل[٦]

يوما تظل حداب الأرض ترفعها من اللوامع، تخليط و تزييل[٧]

كأن أوب ذراعيها، إذا عرقت و قد تلفع بالقور الساقيل[٨]

---

(١)عيرانة:صلبة مثل عير الوحش في قوته و سرعته،النحض:اللحم المتكتل، الزور: الصدر.

(٢)فات:تقدم،الخطم:مقدم الأنف،اللحيان: العظمان اللذان تنبت عليهما الأسنان السفلى، البرطيل:الحديدة الطويلة و الحجر الطويل.

(٣)الغارز:الضرع، تخونه:تنقصه:الأحاليل:مخارج اللبن من الثدي، شبه ذيل الناقة بجريدالنخل.

(٤)قنواء: محدود به الأنف، حرتاها:أذناها، عتق بين: كرم واضح.

(٥)تخدي: تسرع، يسرات: أي قوائم خفاف، ذوابل:يابسة، و قد ورد هذا البيت في سيرة بن هشام على هذه الصورة:

تخدي على يسرات و هي لاحقة،، ذوابل مسهن الأرض تقليل.

(٦)العجايات: عصب قوائم الإبل، زيما: متفرقا، التنعيل: شد النعل علىظفر الدابة ليقيها الحجارة.

(٧)حداب الأرض: ما أشرف وغلظ منها،التزييل:التفريق،اللوامع: السراب أو البرق.

(٨)أوب ذراعيها:رجع يديها و سرعة حركتها، القور: كل موضع مرتفع، العساقيل: السراب.

و قال للقوم حاديهم،و قد جعلت ورق الجنادب يركض الحصى:قيلوا[١]

شد النهار ذراعا عيطل نصف قامت فجاوبها نكد مثاكيل[٢]

نواحة،رخوة الضبعين، ليس لها لما نعى بكرها الناعون،معقول[٣]

تفرى اللبان بكفيها، ومدرعها مشقق عن تراقيها، رعا بيل[٤]

(د)فزع وتجلد

يسعى الوشاة بجنبيها، وقولهم: إنك يا ابن أبى سلمى لمقتول[٥]

وقال كل خليل كنت آمله: لا ألهينك، إنى عنك مشغول[٦]

فقلت: خلوا سبيلى، لا أبالكم فكل ما قدر الرحمن مفعول[٧]

---

(١)الحادى: سائق الإبل، و رق: جمع أورق:الأخضر الذى يضرب إلى السواد، قيلوا: استريحوا في القائلة.

(٢)شد النهار: أي في وسط النهار و وقت ارتفاع الشمس،العيطل: المرأة الطويلة،النصف: المتوسطة في العمر.النكد: جمع نكداء و هي التي لا يعيش لها ولد، المثاكيل: الثكالى.

(٣)نواحة: كثرة النوح، الضبعين: العضدين

(٤)تفرى: تشق، اللبان: الصدر، مدرعها: قميصها، رعابيل: جمع رعبول أى قطع متخرقة، التراقى: جمع ترقوة، وهى عظام الصدر، يشبه الناقة بهذه المرأة التى ذهب عقلها فلا تحس بمشقة السير..

(٥)بجنبيها: الضمير عائد على ناقته، أو على سعاد التى ذكرها فى أول القصيدة، ورواية ابن هشام: نسعى الغواة جنابيها.

(٦)الخليل: الصديق، كنت آمله: كنت أرجو إعانته، ألهينك: أشغلنك.

(٧)فى الديوان (طريقى) مكان (سبيلى)، لا أبالكم: تعبير يستعمل فى الدلالة على أن الممدوح لا مثيل له، والمراد به هنا – الدعاء على أصدقائه. قدر الرحمن: حكم به وقضى.

كل ابن أنثى، وإن طالت سلامته يوما على آلة حدباء محمـــول[١]

(هـ)اعتذار ورجاء

أنبئت أن رســول الله أوعــدنى والعفو عند رسول الله مأمول[٢]

مهلا ! هداك الذى أعطاك نافلة الـــ قرآن فيها مواعيظ، وتفصـــيل[٣]

لا تاخذنى بأقوال الوشاة، ولـــم أذنب، وإن كثرت فى الأقاويل[٤]

(و)موقف الهيبة فى مقام الرسول (صلى الله عليه وسلم)

لقد أقوم مقاماً لـــو يقـــوم بـــه أرى وأسمع ما لو يسمع الفيل[٥]

لظل يرعـــد، إلا أن يكـــون لـــه من النبى، بـــإذن الله، تنويـــل[٦]

حتى وضعت يمينى، لا أنازعـــه فى كف ذى نقمات قيله القيل[٧]

---

(١)الآلة الحدباء: النعش الذى يحمل فيه الميت إلى قبره.

(٢)أوعدنى: أنذرنى بالعقوبة، ويتمثل الانذار فى إهدار الرسول صلى الله عليه وسلم دم كعب

(٣)هداك: هداك ربك للصفح والعفو عنى.

(٤)لم أذنب: أى لم أخطئ فى حقك

(٥)لقد أقوم مقاما: لقد شهدت برؤية الرسول صلى الله عليه وسلم مشهداً عظيم الهيبة

(٦)لظل يرعد: أى يرتجف (جواب لو فى البيت السابق)، التنويل: العطاء والمراد به -هنا- الأمان

(٧)وضعت يمينى: أى صافحت النبى (صلى الله عليه وسلم)، والضمير فى أنازعه للنبى، نقمات: جمع نقمة وهى العقوبة، قيله القيل: أى قوله القول الصادق الفصل المعتد به.

ولهـــو أهيـــب عنـــد وقيل: إنك منسوب ومسـؤول[١]

من ضيغم من ضراء الأسد مخدره ببطن عثر، غيل دونـه غيـل[٢]

يغدو، فيلحم ضر غامين، عيشها لحم من القوم معفور، خراديل[٣]

إذا يساور قرنـا لا يحـل لـه أن يترك القرن إلا وهو مفلول[٤]

منه تظل حمير الوحش ضـامزة ولا تمشى بواديـه الأراجيـل[٥]

ولا يـزال بواديـه أخـو ثقـة مطرح اللحم، والدرسان، مأكول[٦]

(ز)مدح الرسول (صلى الله عليه وسلم)

إن الرسول لنور يستضـاء بـه وصارم من سيوف الله مسلول[٧]

(ح) مدح المهاجرين (رضى الله عنهم)

---

(١)أهيب:أدعى إلى الهيبة والخوف،وفى رواية ابن هشام(فلهو أخوف عندى)

(٢)الضيغم: الأسد، و(من ضيغم) متعلق بأهيب فى البيت السابق، الضراء جمع ضار: مفترس مخدره: عرينه، الغيل: الغيضة والأجمة.

(٣)يغدو: يخرج أول النهار للصيد، يلحم: يطعم لحما، معفور: مطروح على التراب، الخراديل: القطع الصغيرة

(٤)يسور: يواثب ويصارع، القرن: القرن: المماثل فى الشجاعة، مفلول: مكسور ومنهزم

(٥)ضامزة: ساكنة، الأراجيل: جمع رجيل: الراجل خلاف الراكب. وفى رواية ابن هشام(منه تظل سباع الجو نافرة)

(٦)أخو ثقة: الواثق بنفسه وبشجاعته، مطروح: ملقى، وفى رواية ابن هشام (مضرج البز).أى مخضب بالدماء، والدرسان (مثنى درس) الثوب البالى

(٧)يستضاء به: أى يهتدى به إلى طريق الحق والإيمان، مسلول: مخرج من غمده، وقد ورد هذا البيت فى الديوان على هذه الصورة:

إن الرسول لسيف يستضاء به * مهند من سيوف الله مسلول

فى عصبة من قريش قال قائلهم ببطن مكة، لما اسلموا: زولوا[١]

زالوا: فما زال أنكاس، ولا كشف عند اللقاء، ولا ميل معازيل[٢]

شم العرانين، أبطال، لبوسهم من نسج داود فى الهيجاسرابيل[٣]

بيض سوابغ قد شكت لها حلق كأنها حلق القفعاء، مجدول[٤]

لا يفرحون إذا نالت رماحهم قوما، وليسوا مجازيعاً إذا نيلوا[٥]

يمشون مشى الجمال الزهر، يعصمهم ضرب، إذا عرد السود التنابيل[٦]

لا يقطع الطعن إلا فى نحورهم ومالهم عن حياض من الموت تهليل[٧]

---

(١)العصبة:الجماعة:زولوا:أى تحولوا وانتقلوا إشارة إلى الهجرة من مكة إلى المدينة

(٢)الأنكاس: جمع نكس وهو الضعيف المهان، والكشف: جمع أكشف وهو من لا ترس له، والميل: جمع أميل: من لا سيف له أو من لا يحسن الفروسية، والمعازيل: جمع معزال وهو من لا سلاح له.

(٣)شم العرانين: شم الأنوف كناية عن الأنفة وكبر النفس، والعرانين: جمع عرنين طرف الأنف.اللبوس: ما يلبس من السلاح، والسرابيل: الدروع مفردها سربال، أى لباسهم فى الحروب دروع من نسج داود.

(٤)بيض: أى مجلوة (صفة للسرابيل)، سوابغ: طويلة ضافية، شكت: أدخل بعضها فى بعض، القفعاء: نبات يشبه الحسك، يتفرع على سطح الارض له شوك يشبه حلق الدروع، مجدول: محكم الصنعة.

(٥)مجازيع: كثيرو الجزع والمفرد مجزاع، ونيلوا: أصيبوا، وفى رواية ابن هشام (ليسوا مفاريح إن نالت رماحهم).

(٦)الزهر: البيض، يعصمهم: يمنعهم، عرد: جبن وأعرض عن خصمه، التنابيل: القصار جمع تنيال، قيل إنه يعرض بالأنصار لقسوتهم عليه يوم وفوده على النبى صلى الله عليه وسلم

(٧)حياض الموت: موارد الهلاك، ويقصد به: ساحات القتال، تهليل: جبن

فى هذه القصيدة التى تعد من أروع ما جادت به قريحة كعب بن زهير يمدح الشاعر الرسول صلي الله عليه وسلم، كما يمدح المهاجرين من أصحابه.

وقد استهل كعب قصيدته (بانت سعاد) بالغزل مجاريا منهج شعراء عصره فى افتتاح قصائدهم بالغزل والنسيب، وإن كنا نظن أن الشاعر لم يكن فى غزله متغزلا حقيقة، وإنما هو يرمز بسعاد لواقعه الجاهلى الذى يخيل لعين الرائى أنه سعادة فيها المتع مباحة، والحريات غير مقيدة.. ومن ثم أضفى الشاعر على هذا الواقع كل معايير الجمال فى عصره، ثم تنكشف له حقيقة هامة، هى أنه يعيش فى وهم خادع، وأن هذا الواقع الجاهلى فى حقيقته ليس إلا فجع، وولع، وإخلاف، وتبديل،ومن ثم وسم الشاعر هذا العهد من حياته(قبل إسلامه) بكل مظاهر الفساد، كالغدر، والتقلب والتلون واتخاذ المثل السيئة قدوة حتى بطل كل شئ (وما مواعيدها إلا الأباطيل)

ويحدق بكعب الخطر من كل جانب، ويستولى عليه الخوف والفزع إثر وعيد النبى صلى الله عليه وسلم حيث (ضاقت به الأرض، وأشفق على نفسه، وأرجف به من كان فى حاضره من عدوه، فقالوا: هو مقتول )[1]

ويلتمس الطريق إلى الأمان والهداية والنور فى سفر ليس إليه من سبيل إلا الناقة، فيصفها، ويطيل الوصف -على عادته-متتبعا أبعاد

---

وفرار وفى الديوان (ما إن لهم) مكان (ومالهم)

(١)السيرة النبوية لابن هشام (تحقيق محمد شحاته ابراهيم) جـ٤ ص٢٨١ ط دار المنار

الموصوف ودقائقه.

ثم يتخلص من ذلك إلى الاعتذار للرسول صلى الله عليه وسلم عما كان قد نسب إليه طالبا العفو والصفح.

لا تأخذنى بأقوال الوشاة ولم ** أذنب، وإن كثرت فى الأقاويل

ويمدح الرسول صلى الله عليه وسلم بقوله:

إن الرسول لنور يستضاء به ** وصارم من سيوف الله مسلول

يقول كعب:

إن الرسول -صلى الله عليه وسلم- هو السراج المنير، والهادى إلى الطريق القويم، يضىء ظلمات القلوب بنور الله، ويخرج الناس من الظلمات إلى النور، ومن الخوف والحيرة إلى الإمان والسكينة والاطمئنان وهو السيف البتار الذى يرفع راية الحق، وينشر دين الله فى شجاعة وقوة.

وبالرجوع إلى القصيدة نلحظ أن هذا البيت يأتى بعد تصوير كعب لموقف الهيبة فى مقام رسول الله صلى الله عليه وسلم، وتفننه فى وصف الأسد، وكأنه يومىء بهذه الصفات إلى سمات الشخصية الإسلامية، وفى ذروة هذه السمات تتجلى شخصية الرسول (صلى الله عليه وسلم)

صفات الرسول صلى الله عليه وسلم فى مديح كعب:

ولعلنا نلحظ أن كعباً فى قوله:

إن الرسول لنور يستضاء به وصارم من سيوف الله مسلول

قد جمع فى هذا البيت بين صفتين أساسيتين للرسول صلى الله عليه وسلم:هما (الهداية) و (القوة).

فالرسول صلى الله عليه وسلم نور، والنور مصدر الهداية، وسببها، حيث يجلو الظلمات، ويبعث الأمن والأمان والاطمئنان.

والرسول سيف من سيوف الله، سله الله على الكافرين، والسيف رمز القوة التى تحقق العدل والسلام والرخاء.

*دلالة الصفات على مقام الممدوح وشخصية المادح:*

لقد جعل كعب – فى مديحه- سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم نورا، وسيفا بتاراً من سيوف الله سبحانه، يبشر بالحق وينشر التوحيد فى كل زمان ومكان.

وهاتان الصفتان تتمثلان فى شخصية النبى صلى الله عليه وسلم أيما تمثل، فالرسول نور ( قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين)، وهو أيضا داع إلى الحق وإلى صراط الله المستقيم فى شجاعة وقوة ويقين، ومن فى العالمين أولى من الرسول صلى الله عليه وسلم بهاتين الصفتين اللتين أضفاهما عليه المادح؟

ولعلنا نلحظ أن كعبا كان قبل لقاء الرسول صلى الله عليه وسلم يفتقد هاتين الصفتين، إذ كان ضالا يهيم على وجهه فى الصحراء، يعانى مشاعر الخوف والذعر والمستقبل المظلم المجهول، وفى الوقت ذاته كان يمثل الضعيف الذى يتطلع إلى قوة تحميه وتجيره.

وكأنى بالشاعر يعبر - فى مديحه للرسول صلى الله عليه وسلم - عما كان يعتلج فى صدره من مشاعر وأحاسيس، وحاجة ماسة إلى الهداية وإلى القوة قبل لقاء الرسول صلى الله عليه وسلم، ثم وجدها ماثلة فى شخصية المصطفى عليه الصلاة والسلام.

**تعقيب:**

بالنظر فى هذا اللون من شعر كعب المادح للرسول صلى الله عليه وسلم، نلحظ أن الشاعر إنما يمتدح الرسول صلى الله عليه وسلم بذروة الفضائل النفسية والخلقية من مثل: (الهداية) و (القوة والشجاعة) ولعل هاتين الصفتين تعدان من أشهر مناقب النبى صلى الله عليه وسلم، ومن الجوانب المضيئة فى شخصيته وإن كان شاعرنا فى مديحه للرسول صلى الله عليه وسلم قد يجمع بين المحاسن الجسمية والفضائل النفسية

كما فى قوله يمتدح الرسول صلى الله عليه وسلم [١]:

تحمله الناقة الأدماء معتجرا بالبرد كالبدر جلى ليلة الظلم[٢]

وفى عطافيه أو أثناء ريطته ما يعلم الله من دين ومن كرم[٣]

فهذان البيتان لكعب بن زهير يصوران ممدوحاً قد استكمل ناحيتى الكمال: الجسمى والنفسى، فهو ذو طلعة بهية، جميل كالبدر، وربما

---

(١)العمدة لابن رشيق جـ٢ ص١٣٦ تحقيق محمد محى الدين عبد الحميد ط دار الجيل. بيروت

(٢)الأدماء: السمراء، اعتجر: لف العمامة. والبرد: ثوب مخطط

(٣)العطف: الجانب، والريطة: ثوب يشبه الملحفة

لحظ فى هذا التشبيه أنه إلى جانب جمال الوجه يجلى ظلام الضلال، وليل الإشراك والكفر، وهو يحمل بين جنبيه دينا وخلقا كريما، والشاعر هنا يصور إنسانا مثاليا كاملا[١]

ويجمع كعب بين الفضائل الجسمية والفضائل النفسية أيضا فى قوله يمدح الرسول صلى الله عليه وسلم[٢]:

مسح النبى جبينه فله بياض بالخدود
وبوجهه ديباجة كرم النبوة والجدود[٣]

يقول كعب: إن النبى (صلى الله عليه وسلم) قد مر بيده الكريمة على جبينه فتوهج الخدان نوراً وبياضا وإشراقا، وهذا النور والبياض والإشراق الذى يلوح فى وجه الرسول صلى الله عليه وسلم هو من نور النبوة وشرف المحتد.

فقد أضفى الشاعر على الرسول صلى الله عليه وسلم أسمى صفات الكمال الجسمى الذى يتراءى أول ما يتراءى فى نور الوجه، وبياض الخدود، وإشراق الطلعة، كما أضفى على ممدوحه أسمى صفات الكمال النفسى والذى يتمثل فى نور النبوة، وشرف النسب.

وقد واءمت ألفاظ الشاعر المعانى التى عبرت عنها، فجاءت مثلها

---

(١)أسس النقد الأدبى عند العرب. للدكتور أحمد أحمد بدوى ص٢٠٥ ط ثالثة سنة ١٩٦٤

(٢)شرح ديوان كعب بن زهير (صنعة الإمام أبى سعيد السكرى) ص٢٥٩

(٣)ديباجة الوجه: حسن بشرته

تفيض إشراقا ورقة وسلاسة ووضوحاً وجمالا.

**(ب)مدح المهاجرين:**

بالرجوع إلى قصيدة (بانت سعاد) أو (البردة) لكعب بن زهير نلحظ أن الشاعر قد مدح فى قصيدته جلة المهاجرين من صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم القرشيين فى عدة أبيات، يقول فيها:

فى عصبة من قريش قال قائلهم ببطن مكة، لما أسلموا زولوا
زوالوا، فما زال أنكاس ولا كشف عند اللقاء، ولا ميل معازيل
شم العرانين، أبطال، لبوسهم من نسج داود فى الهيجا سرابيل
بيض، سوابغ، قد شكت لها حلق كأنها حلق القفعاء، مجدول
لا يفرحون إذا نالت رماحهم قوما، وليسوا مجازيعاً إذا نيلوا
يمشون مشى الجمال الزهر، يعصمهم ضرب، إذا عرد السود التنابيل
لا يقع الطعن إلا فى نحورهم وما لهم عن حياض الموت تهليل

ففى قوله:

فى عصبة من قريش قال قائلهم ببطن مكة، لما أسلموا:زولوا

يصف كعب المهاجرين (رضى الله عنهم) بالاستجابة لداعى الهجرة، والتضحية بالوطن والمال والأهل من أجل العقيدة، فمادة (الزوال هنا لا تعنى الفناء، وإنما لها دلالة التحول والانتقال إلى يثرب لتتكون الأمة الإسلامية) [1]

---

(١)من مقال بعنوان (قصيدة البردة لكعب بن زهير ) للأستاذ الدكتور صابر

وفى قوله:

زوالوا، فما زال أنكاس ولا كشف ٠ عند اللقاء، ولا ميل معازيل

يضفى الشاعر على ممدوحيه صفات: الفروسية، والقوة، والثبات فى الحرب، والصدق فى القتال.

وينفى عنهم: الأنكاس، والكشف، والميل، والمعازيل.

وفى قوله:

شم العرانين، أبطال، لبوسهم من نسج داود، فى الهيجا، سرابيل

بيض، سوابغ، قد شكت لها حلق كأنها حلق القفعاء، مجدول

يصف كعب المهاجرين من صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم بأنهم: أبطال، ذوو عزة وأنفة وكبرياء واستعداد للقتال، لباسهم – فى الحرب– دروع سوابغ ضافية محكمة.

(والمتأمل فى هذه الصفات يدرك أن الشاعر ركز على مظاهر القوة المدافعة التى يتسم بها المهاجرون من اصحاب رسول الله... ولعل الشاعر فى هذه الصفات يحتكم إلى مقاييس البيئة العربية فى رؤيتها لملامح العزة الإنسانية) [1].

فالمهاجرون يتسمون بالبطولة، والعزة، والأنفة، والاستعداد للقتال

---

عبد الدايم، مجلة كلية اللغة العربية بالزقازيق. العدد العاشر ١٤١٠هـ– ١٩٩٠م (ص١٣٢)

(١)من مقال بعنوان (قصيدة البردة لكعب بن زهير) للأستاذ الدكتور صابر عبد الدايم، مجلة كلية اللغة العربية بالزقازيق. العدد العاشر ١٤١٠هـ– ١٩٩٠م (ص١٣٣)

فى سبيل الحق، ومن ثم لن تستطيع قوى الضلال والشرك أن تنتصر عليهم، أو أن تنال منهم، فهم فى الحرب يلبسون الدروع السوابغ الضافية التى أحكمت حلقاتها، فصارت تشبه شجرة القفعاء فى شكلها وإحكام نسجها.

وفى قوله:

لا يفرحون إذا نالت رماحهم قوما، وليسوا مجازيعا إذا نيلوا

يصف كعب المهاجرين بأنهم غير متكبرين ولا متجبرين إذا ما انتصروا على عدوهم، إذ إنهم لا يفرحون لنصر حققوه لأنهم واثقون من نصر الله لهم، ولا يجزعون إن أصابتهم هزيمة، لأنهم أقوياء، والجزع ضعف وخور.

وفى قوله:

يمشون مشى الجمال الزهر، يعصمهم ضرب إذا عرد السود التنابيل

يضفى كعب على ممدوحيه صفات: السيادة والشرف والهيبة، فهم يمشون فى رفق ووقار وعظمة، وكأنهم الجمال البيض فى الطول والقوة والهيبة، وإقدامهم يحميهم من الهزيمة، فى حين نرى قوماً آخرين يفرون من المعارك جبنا وخوفا لأنهم سود، قصار القامة، وقيل إنه (يعرض بالأنصار لغلظة منهم كانت عليه) [1]

أما فى قوله:

---

(١)الشعر والشعراء. لابن قتيبة ص٣٤ ط أولى. عالم الكتب. بيروت سنة١٢٨٢هـ

فى سبيل الحق، ومن ثم لن تستطيع قوى الضلال والشرك أن تنتصر عليهم، أو أن تنال منهم، فهم فى الحرب يلبسون الدروع السوابغ الضافية التى أحكمت حلقاتها، فصارت تشبه شجرة القفعاء فى شكلها وإحكام نسجها.

وفى قوله:

لا يفرحون إذا نالت رماحهم قوما، وليسوا مجازيعا إذا نيلوا

يصف كعب المهاجرين بأنهم غير متكبرين ولا متجبرين إذا ما انتصروا على عدوهم، إذ إنهم لا يفرحون لنصر حققوه لأنهم واثقون من نصر الله لهم، ولا يجزعون إن أصابتهم هزيمة، لأنهم أقوياء، والجزع ضعف وخور.

وفى قوله:

يمشون مشى الجمال الزهر، يعصمهم ضرب إذا عرد السود التنابيل

يضفى كعب على ممدوحيه صفات: السيادة والشرف والهيبة، فهم يمشون فى رفق ووقار وعظمة، وكأنهم الجمال البيض فى الطول والقوة والهيبة، وإقدامهم يحميهم من الهزيمة، فى حين نرى قوماً آخرين يفرون من المعارك جبنا وخوفا لأنهم سود، قصار القامة، وقيل إنه (يعرض بالأنصار لغلظة منهم كانت عليه) [1]

أما فى قوله:

---

(١)الشعر والشعراء. لابن قتيبة ص٣٤ ط أولى. عالم الكتب. بيروت سنة١٢٨٢هـ

لا يقع الطعن إلا فـــى نحـــورهم وما لهم عن حياض الموت تهليـــل

فيضفى كعب على المهاجرين صفات: الشجاعة، والثبات، والإقدام، وينفى عنهم: الجبن والفرار من ساحة الوغى، فهم يواجهون العدو بصدورهم ولا يفرون من ميدان القتال.

### (ج)مدح على بن أبى طالب (رضى الله عنه)

لم يقف مديح كعب للمهاجرين عند حد مدح النبى صلى الله عليـــه وسلم، ومدح جلة المهاجرين من أصحابه، فقد مدح أمير المؤمنين على بن أبى طالب (رضى الله عنه) فـــى قصـــيدة طويلـــة (كانـــت بنوأمية تنهى عن روايتها وإضافتها إلى شعره) مطلعها[١]

هل حبل رملة قبل البين مبتـــور أم أنت بالحلم بعد الجهل معذور[٢]

وفيها يقول مادحاً على بن أبى طالب (رضى الله عنه) [٣]

إن عليـــا لميمـــون نقيبتـــه بالصالحات من الأفعال مشـــهور[٤]

---

(١)شرح ديوان كعب بن زهير: صنعة الإمام أبى سعيد السكرى ص٢٥١ الدار القومية للطباعة والنشر.

(٢)الحبل: أى حبل الود والوصال، رملة: اسم علم، البين: الفراق، مبتور: منقطع، الحلم: العقل

(٣)شرح ديوان كعب بن زهير. صنعة الإمام أبى سعيد السكرى ص٢٥٤

(٤)الميمون: المبارك، النقيبة: النفس والطبيعة والخليقة، يقال: رجل ميمون النقيبة إذا كان مبارك النفس، مظفرا بما يحاول.

صهر النبى وخير الناس مفتخرا فكل من رامه بالفخر مفخور(١)

صلى الطهور مع الأمى أولهم قبل المعاد ورب الناس مكفور(٢)

مقاوم لطغاة الشرك يضر بهم حتى استقاموا ودين الله منصور(٣)

بالعدل قمت أمينا حين خالفه أهل الهوى وذوو الأهواء والزور(٤)

يا خير من حملت نعلا لـه قدم بعد النبى، لديه البغى مهجور(٥)

أعطاك ربك فضلا لا زوال لـه من أين أنى له الأيام تغيير(٦)

ففى هذه الأبيات يمتدح كعب بن زهير أمير المؤمنين على بن أبى طالب (رضى الله عنه) بعدة صفات.

ففى قوله:

إن عليا لميمون نقيبته بالصالحات من الأفعال مشهور

صهر النبى وخير الناس مفتخرا فكل من رامه بالفخر مفخور

نرى اشاعر يضفى على ممدوحه صفات: بركة النفس والخليقة، والظفر فى كل مسعى، والمبادرة إلى عمل الصالحات، والسبق فى كل ميدان، ولا عجب، فهو صهر النبى صلى الله عليه وسلم، وخير الناس قاطبة،

---

(١) رامه: قصده وطلبه، مفخور: أى أن عليا سيسبقه فى الفخر ويعلو عليه

(٢) الطهور: يعنى عليا، الأمى: يقصد محمدا عليه الصلاة والسلام، مكفور: مستور

(٣) الطغاة: جمع طاغية وهو الكثير الظلم والعناد، الشرك: أى الإشراك بالله وعدم التوحيد

(٤) أهل الهوى: أى أهل الضلال والكفر، والزور: الكذب والبهتان

(٥) البغى: الظلم والعدوان، مهجور: مفارق

(٦) لا زوال له: أى لا نهاية له، فهو خالد مر الأيام والدهور

ومن ثم لا يمكن لأحد ن يسبقه فى فخر أو يصل إلى منزلته.

وفى قوله:

صلى الطهور مع الأمى أولهـم قبل المعاد ورب الناس مكفـور

يمتدح الشاعر عليا (رضى الله عنه) بسبقه فى الإسلام، فهـو أول من صلى مع النبى الأمى عليه الصلاة والسلام، وعرف الله قبل أن يعرفه أحد، فهو أسبق الناس إسلاماً وإيماناً.

وفى قوله:

مقاوم لطغاة الشـرك يضـربهم حتى استقاموا ودين الله منصور

يمتدح كعب بن زهير أمير المؤمنين على بن أبى طالـب بمقاومـة الطغاة والمشركين، وجهادهم والضرب على أيديهم حتى اهتدوا إلى صراط الله المستقيم، وانتصر الحق، وعلت راية الإسلام.

وفى قوله:

بالعدل قمت أمينا حـين خالفـه أهل الهوى وذوو الأهواء والـزور

يمتدح كعب أمير المؤمنين بحرصه على تحقيق العدل فى أمانة ونزاهة، ومقاومة أهل الكفر والضلال ومخالفة أرباب الزور والكذب والبهتان

أما فى قوله:

يا خير من حملت نعلا له قـدم بعد النبي لديه البغـى مهجـور

أعطاك ربك فضـلا لا زوال لـه من أين أتى لـه الأيـام تغييـر

فيجعل الشاعر أمير المؤمنين علي بن أبي طالب (رضي الله عنه) خير الناس بعد رسول الله صلى الله عليه و سلم، طريقه طريق الحق و العدل و الإيمان، و هذا فضل الله يؤتيه من يشاء من عباده، و لا تستطيع الأيام أن تغيره، فهو خالد أبدا، و لا يمكن لأحد أن ينكره لأن الفضل كالشمس لا يحجب نورها شيء، و لا يجحد ضوءها أحد.

هكذا كان مدح المهاجرين في شعر كعب بن زهير، رأيناه في مدائحه لسيدنا رسول الله صلى الله عليه و سلم،و رأيناه في مدح المهاجرين من أصحاب النبي صلى الله عليه و سلم،كما رأيناه في مدحه لأمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه.

**نظرات نقدية:**

أولا-بالتأمل في الصفات التي أضفاها الشاعر على جلة المهاجرين من أصحاب النبي صلى الله عليه و سلم -في قصيدة البردة-نلحظ أن هذه الصفات تابعة و نابعة مما أضفاه الشاعر على الرسول صلى الله عليه و سلم من شمائل و فضائل في القصيدة ذاتها.

فالرسول صلى الله عليه و سلم(نور يستضاء به)،و يهتدى به في ظلمات الكفر و الشك و الضلال. و الحيرة و الخوف، فهو منبع الهداية،و منبع الوحي و التشريع.

وهو (صارم من سيوف الله مسلول)يحقق العدل و السلام و الأمان

والإطمئنان. و من ثم كان المهاجرون الجنود الذين يحملون على عاتقهم شرف نشر الهداية و إقامة التشريع، و بث السلام و الأمان في كل مكان، فاتسموا بالتضحية بالأهل و المال و الوطن في سبيل الحق، كما اتسموا بالفروسية، و الشجاعة، و الثبات في الحرب، و الصدق في القتال، لهم عزة و إباء، و هيبة. و سيادة و شرف.

وكما يقول الأستاذ الدكتور صابر عبد الدايم في بحثه القيم(قصيدة البردة لكعب بن زهير) [١] (و كأن هاتين الصفتين اللتين أضفاهما كعب على رسول الله صلى الله عليه و سلم-أصبحتا إطارا تتحرك داخله، و تنبع منه كل الصفات الحسنة، و كأن هؤلاء المهاجرين استمدوا كل صفاتهم السلوكية و النفسية من شخصية النبي صلى الله عليه و سلم، و التي أنارت لهم الطريق، و ضربت لهم المثل الأعلى في الشجاعة و الفداء.)، و لا عجب، فقد ترسموا خطاه، و تتلمذوا في مدرسته. و نهلوا من علمه و هديه.

ثانيا- بمعاودة النظر في الأبيات التي يمتدح فيها الشاعر أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه،نلحظ أن الشاعر قد أضفى على ممدوحه صفات: بركة النفس و الطبيعة، و المبادرة إلى عمل الصالحات، و السبق في الإسلام، و مقاومة الطغاة و المشركين، و مخالفة أهل الضلال و الزور و البهتان، و انتهاج طريق الحق و العدل والإيمان.

---

(١)مجلة كلية اللغة العربية بالزقازيق.العدد العاشر ١٤١٠هـ-١٩٩٠م(ص١٤٠)

و ما من شك في أن هذه الصفات كلها صفات إسلامية،تعد جديدة في شعر المديح عند كعب بن زهير، و كأن الشاعر بهذا المديح يرسم الصورة المثلى للشخصية الإسلامية،كما يراها في أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه.

و لعلنا بهذا المديح نتبين مدى تأثير الإسلام في نفسه و في شعره،و أنه أخذ- بعد إسلامه- يستشعر معاني الإسلام الروحية و الخلقية،و يستهدي- في شعره- القرآن الكريم، و أدب النبي و خلقه العظيم.

ثالثا- امتاز أسلوب كعب بن زهير في مديحه لعلي بن أبي طالب بوضوح المعاني، و جزالة الألفاظ، و سلاسة الأساليب، و إشراق الديباجة، وإن كنا نأخذ على الشاعر ما يلي:

(أ)مخالفة الاستعمال اللغوى: فى قوله ( صلى الطهور) وهو يعنى عليا، فالذى فى كتب اللغة: يقال: رجل طاهر وطَهِر (بكسر الهاء)، وأما طهور فهو وصف للماء الذى يتطهر به...

وإن كنا نرى أن الشاعر ربما حمل قوله معنى التصوير الاستعارى إذ يشبه عليا – فى قوة تأثيره بهداية الضال –بالماء الطهور الذى يطهر غيره فيحوله من حال إلى حال.

(ب)**اضطراب التعبير فى قوله (من أين أنى له الأيام تغيير)**

فنحن نرى أن هذا التعبير مضطرب، أو على الأقل فيه ثقل واضح، ومن ثم لا تقبله النفس ولا يرضى عنه الذوق.

(ج)الإقواء فى قوله:

بالعدل قمت أمينا حين خالفه أهل الهوى، وذووا الأهواء والزور

فقد اختلفت حركة الروى فى هذا البيت عما قبله وبعده.

**ثانيا: مدح الأنصار:**

مدح كعب بن زهير الأنصار فى قصيدة رائية له مطلعها:

من سره كرم الحياة فلا يزل فى مقنب من صالحى الأنصار

ويقال فى سبب هذا المديح: إن كعب بن زهير حين أنشد النبى صلى الله عليه وسلم قصيدته(بانت سعاد.)فمدح فيها النبى صلى الله عليه وسلم، ومدح المهاجرين من أصحابه، حتى إذا ما انتهى إلى قوله:

يمشون مشى الجمال الزهر يعصمهم ضرب، إذا عرد السود التنابيل

قالوا: إنه يعرض بالأنصار لغلظة منهم كانت عليه[١]

فلما سمعت الأنصار هذه القصيدة شق عليهم، حيث لم يذكرهم مع إخوانهم من المهاجرين، فتعطفت عليه، وأهدت إليه، وقالوا: ألا ذكرتنا مع إخواننا من قريش.[٢]

وقال المهاجرون: ما مدحنا من هجا الأنصار[٣]، ويقال: إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال له حين أنشده (بانت سعاد) (لولا ذكرت الأنصار بخير، فإنهم لذلك أهل)[٤]

---

(١) الشعر والشعراء لابن قتيبة ص٣٤ ط أولى. عالم الكتب سنة ١٢٨٢م

(٢) شرح ديوان كعب بن زهير. صنعة الإمام أبى سعيد السكرى ص٢٥. ط الدار القومية للطباعة

(٣)الأغانى جـ١٧ ص٩٠ ط مؤسسة جمال للطباعة والنشر، بيروت

(٤)السيرة النبوية: لابن هشام (تحقيق محمد شحاته إبراهيم) جـ٤ ص٢٨٥

فقال كعب هذه الأبيات يمدح النصار، وهى فى قصيدة له: [١]

(أ)صلاح وتقوى

١-من سره كرم الحياة فلا يزل فى مقتب من صالحى الأنصار[٢]

٢-تزن الجبال رزانة أحلامهم وأكفهم خلف من الأمطار[٣]

(ب)شجاعة فائقة

٣-المكرهين السمهرى بأذرع كصواقل الهندى غير قصار[٤]

٤-والناظرين بأعين محمرة كالجمر، غير كليلة الإبصار[٥]

(ج)دفاع عن الدين وبذل النفس للنبى فى كل يوم عصيب

٥-والذائدين الناس عن أديانهم بالمشرفى وبالقنا الخطار[٦]

---

(١)شرح ديوان كعب بن زهير ص٢٥، وانظر: السيرة النبوية لابن هشام جـ٤ ص٢٨٥ مع اختلاف فى رواية الأبيات وفى بعض الألفاظ.

(٢)المقتب: جماعة الخيل والفرسان. قال أبو عمرو: المقتب ألف أو أقل، وقال الأصمعى: هم جماعة من الفوارس نحو ثلاثين أكثر أو أقل.

(٣)هذا البيت لم يرد فى سيرة ابن هشام. الأحلام: العقول، والخلف: السقى، وأخلف سقى

(٤)المكرهين السمهرى: أى الحاملين الرمح على المكروه وهو الموت، والسمهرى: الرمح الشديد، والصواقل: القاطعة الماضية، شبه أيديهم بالقنا فى قوته وصلابته، وفى سيرة ابن هشام: كسوالف الهندى.

(٥)الأعين المحمرة: شديدة الغيظ فهى كالجمر الذى يحرق وذلك من شهوة اللقاء

(٦)الذائدين: الدافعين، الخطار: الرمح ذو الاهتزاز الشديد، وخطران الرمح: ارتفاعه وانخفاضه للطعن

٦-والبائلين نفوسهم لنبيهم يوم الهياج وقبة الجبار[١]

٧-دربوا كما دربت أسود خفية غلب الرقاب من الأسود ضوارى[٢]

(د)كرم عن طيب نفس

٨-وهم إذا خوت النجوم فإنهم للطائفين السائلين مقارى[٣]

٩-وهم إذا انقلبوا كأن ثيابهم منها تضوع فأرة العطار[٤]

١٠-والمطعمون الضيف حين من لحم كوم كالهضاب عشار[٥]

١١- والمنعمون المفضلون إذا شتوا والضاربون علاوة الجبار[٦]

---

(١)البائلين: الذين يعطون مختارين عن طيب نفس، الهياج: الحرب، قبة الجبار: أراد بيت الله الحرام والواو للقسم، ورواية ابن هشام: والباتعين نفوسهم لنبيهم للموت عند تعانق وكرار

(٢)دربوا: اعتادوا ضراوة الأسود، وخفية: موضع تكثر فيه الأسود، غلب الرقاب: غلاظها

(٣)خوت النجوم وأخوت: إذا لم يكن لها مطر، والشاعر يقصد: الإمحال والجدب، ومقارى من القرى: الضيافة ورواية ابن هشام: قوم إذا خوت النجوم فإنهم للطارقين النازلين مقارى

(٤)انقلبوا: رجعوا من الحرب، والفأرة: وعاء الطيب، ولم يرد هذا البيت فى سيرة ابن هشام

(٥)ينوبهم: يحل ديارهم، الكوم: القطعة من الإبل، الكوماء: العظيمة السنام. ولم يرد هذا البيت فى السيرة.

(٦)إذا اشتوا: المراد فى وقت الشتاء حين يحل الجدب والفقر، العلاوة: العنق، الجبار: الشديد من الفرسان

(هـ)عزة ومنعة

١٢-لا يشتكون الموت إن نزلت بهم شـــهباء ذات معـــاقم وأوار[١]

١٣-وإذا نزلت لِيمنعوك إلـيهم أصبحت عند معاقل الأغفـار[٢]

(و)سيادة وشرف

١٤-ورثوا السيادة كابراً عن كابر إن الكرام هـم بنـو الأخيـار[٣]

١٥-للصلب من غسان فوق جراثم تنبو خوالدها عـن المنقـار[٤]

١٦-لو يعلم الأحياء علمى فيهم حقا. لصدقتى الـذين أمـارى[٥]

(ز) جهاد واستبسال

١٧-صدموا عليا يوم بدر صدمة دانـت علـى بعـدها لنـزار[٦]

---

(١)الشهباء: الكتيبة العظيمة والكثيرة السلاح، معاقم: هلاك، من قولهم: حرب عقيم لكثرة قتلاها والأوار: الغبار الذى يثور من الحوافر فى الحرب.

(٢)المعاقل: الحصون والموضع الممتنع، الأغفار: أولاد الأروية واحدها غفر، ورواية ابن هشام: وإذا حللت

(٣)كابرا عن كابر: أى كبيرا شريفا عن كبير شريف، ورواية ابن هشام على هذه الصورة: ورثوا المكارم كابرا عن كابر * إن الخيار هم بنو الأخيار

(٤)الصلب: الجد الأعظم، غسان: ماء نزل عليه قوم من الأزد فنسبوا إليه، والجرثومة: الأصل، الخوالد: الجبال، والمنقار: الذى يقطع الحجارة، وهذا مثل ضربه لعزهم ومنعتهم.

ورواية ابن هشم:تنى لفر من غسان من جرثومة* أعيت محافرها على المنقار

(٥)أمارى: من مارى ممراة ومراء أى جادل ونازع

ورواية ابن هشام: لو يعلم الأقوام علمى كله * فيهم لصدقتى الذين أمارى

(٦) عليا: هو على بن مسعود الغسانى، دانت: خضعت، نزار هو: نزار بن معد بن عدنان جد من أجداد الرسول صلى الله عليه وسلم.

١٨-يتطهرون كأنه نسك لهم بدماء من علقوا من الكفار[١]

ففى هذه الأبيات التى اقتطفناها من رائية كعب بن زهير فى مدح الأنصار، نرى الشاعر يضفى على ممدوحيه صفات عدة:

(أ)ففى البيتين (١، ٢) يضفى على الأنصار صفات: الصلاح والتقوى والكرم، فيقول: من أر اد حياة عزيزة كريمة فلا يزل مع هذه الجماعة من الرجال الذين عرفوا بالصلاح، والتقوى، والعقول الراجحة الرشيدة والكرم الواضح.

(ب)وفى البيتين (٣، ٤ ) يمتدح كعب الأنصار بشجاعتهم الفائقة، حيث يحملون رماحاً – تجلب على الأعداء الموت – بأيد صلبة قوية كأنها سيوف قاطعة، وفى أعينهم حمرة الغيظ والغضب بسبب شهوة لقاء الأعداء، وكأن أعينهم ناراً تحرق أعداءهم.

(ج)وفى الأبيات (٥ – ٧) يمتدح الشاعر الأنصار بالذود عن الدين، وبذل النفس للنبى صلى الله عليه وسلم فى كل يوم عصيب، فهم يدافعون عن دينهم بسيوفهم ورماحهم، ويلتفون حول نبيهم يفتدونه بأنفسهم وأرواحهم فى شدة بأس كالأسود الضارية.

(د)وفى الأبيات (٨ – ١١) يصف كعب الأنصار بالكرم والجود والإيثار عن طيب نفس، إذ إنهم فى سنى الجدب والمحل كرماء، لا يمنعون قراهم كل سائل وطائف، حيث يبذلون لضيوفهم أغلى ما

---

(١) النسك: العبادة والذبيحة، علقوا: قتلوا

عندهم، وينعمون على الناس فى وقت الشدة – حين يعز فى مثل هذا الوقت الكرم - ويضربون بسيوفهم أعناق الجبابرة الذين لا يذعنون لدعوة الحق، وصراط الله المستقيم.

(هـ)وفى البيتين (١٢، ١٣) يضفى شاعرنا على ممدوحيه صفة العزة والمنعة، فهم لا يرهبون ولا يجبنون عن لقاء الجيوش العظيمة العدد والعدة، وإذا حللت بهم وجدت منهم الحماية والأمان. وشعرت أنك فى حمى الأبطال الشجعان.

(و)وفى الأبيات (١٤ – ١٦) يضفى الشاعر على الأنصار صفتى:السيادة والشرف، فالسيادة فيهم قديمة توارثوها عن الآباء والأجداد، وهم فى الأصل العريق. فى الغر من غسان، وهو شرف ينبوعن التجريح والشك، وشاعرنا أعلم الناس بأعراقهم وشرفهم.

(ز)وفى البيتين (١٧، ١٨) يمتدح كعب بن زهير الأنصار بجهادهم فى سبيل الله. وبلائهم المشرف فى معركة بدر حيث صدموا الكفار صدمة ذلت لها رقاب من كانوا يعادون الإسلام، ويكيدون له.

ولا عجب، فهم يعدون قتل الكفار نسكا وعبادة تطهرهم، وتقربهم من الله سبحانه وتعالى.

**نظرات نقدية:**

أولا: بالتأمل فى مدح كعب بن زهير للأنصار يتضح لنا أن كعبا قد امتدح الأنصار بالصلاح والتقوى والشجاعة، والذود عن الدين،

والكرم والإيثار، والعزة، والمنعة، والسيادة المتوارثة، والجهاد فى سبيل الله، والقضاء على الكفر وأهله.. إلى ما هنالك من قيم ومثل جديدة كانت قد نشأت بفعل الدعوة الإسلامية على صاحبها أفضل الصلاة والسلام.

ولعلنا نلحظ أن شاعرنا قد أضفى على ممدوحيه بعض الصفات الجديدة التى قلنا إنها نشأت مع الإسلام وبفضله، ولم يكن للشعراء الجاهلين بها عهد من قبل، من مثل: التقى والذود عن الدين والجهاد فى سبيل الله، وبذل النفس للنبى صلى الله عليه وسلم فى كل يوم عصيب، والقضاء على الكفر وأهله. وإن كان الشاعر لم يغفل صفات قديمة أقرها الإسلام. كالشجاعة والكرم مثلا.

والحقيقة أننا نرى بونابين مدح كعب للأنصار فى هذه القصيدة، ومدحه المهاجرين فى قصيدته (البردة) حيث أضفى الشاعر على المهاجرين صفات عهدنا أكثرها عند شعراء المديح فى العصر الجاهلى، كالعزة والإباء، والشجاعة، وأنهم يلبسون الدروع السابغة فى القتال، ولا يفرحون بنصر، ولا يجزعون من هزيمة.

وهذا يدل على أن تحولا قد طرأ على شعر كعب فى مديح الأنصار، ونحن نرد ذلك إلى تأثير الإسلام فى نفسه وشعره، وهذا يعنى أن مدح الأنصار قد كان بعد مدح المهاجرين فى قصيدة البردة بزمن ليس بالقصير.

فمديح كعب للأنصار ينم عن أن الشاعر حين نظم هذا المديح كان

يعى تماماً تعاليم الإسلام. وقيمه ونسكه، وأحكام شريعته، وتاريخ غزواته، فمثل هذه الصفات التى أضفاها كعب على الأنصار لا تصدر إلا عن مسلم أشرب تعاليم الإسلام، وتأدب بأدب القرآن، وتخلق بخلق النبى العدنان صلى الله عليه وسلم.

والحقيقة أن مصادر التراث لم تذكر لنا شيئا عن زمن نظم كعب قصيدته فى مدح الأنصار، فكل الذى ذكرته أن كعبا قد أنشد الرسول صلى الله عليه وسلم قصيدته (بانت سعاد) حين وفد عليه معلنا إسلامه وتوبته.

لكن متى نظم قصيدته فى مدح الأنصار ؟ هل نظمها عقب إلقاء قصيدته (بانت سعاد) أم بعد ذلك بزمن قد يكون طويلا أو قصيرا؟

إن ما ورد فى مصادر التراث يوحى بأن كعبا قد قال قصيدته فى مدح الأنصار عقب إلقاء قصيدته (بانت سعاد) – حيث تذكر مصادر التراث أنه حين سمعت الأنصار قصيدة (بانت سعاد) شق عليهم حيث لم يذكرهم مع إخوانهم من المهاجرين، فتعطفت عليه وأهدت إليه، وكلموا النبى صلى الله عليه وسلم، وقالوا: ألا ذكرتنا مع إخواننا من قريش، وقال المهاجرون: ما مدحنا من هجا الأنصار (وقال النبى صلى الله عليه وسلم حين أنشده (بانت سعاد) (لولا ذكرت الأنصار بخير فإنهم لذلك أهل) فقال كعب هذه الأبيات فى قصيدة له) [١]

---

(١) السيرة النبوية لابن هشام جـ٤ ص٢٨٥

وهذا ما نستبعده، ولا نستطيع أن نقنع أنفسنا به، لأسباب أهمها:

١-ما نراه فى مدح الأنصار من تأثر واضح بالإسلام، وقيمه ومثله، وأخبار غزواته، وهو ما يؤكد أن قصيدة كعب فى مدح الأنصار قد أعدها الشاعر بعد أن أشربت نفسه تعاليم الإسلام وفضائله وهذا لا يتأتى بين عشية وضحاها، وإنما يستغرق وقتاً، ولو كانت هذه الصفات الإسلامية التى أضفاها كعب على الأنصار فى مخيلته -قبل إسلامه- لنعت بها المهاجرين الذين أضفى عليهم الشاعر صفات أكثرها يصلح لكل بيئة وكل زمن.

٢-بدا فى مدح كعب لأمير المؤمنين على بن أبى طالب رضى الله عنه التأثر الواضح بتعاليم الإسلام. وقيمه ومثله، فقد مدح الشاعر عليا بصفات إسلامية، من مثل بركة النفس والسريرة، والمبادرة إلى عمل الصالحات، والسبق فى الإسلام، ومقاومة الطغاة والمشركين، ومخالفة أهل الكفر والزور وانتهاج طريق الحق والعدل والإيمان كما سبق أن ذكرنا.

وما من شك فى أن هذا المديح كان فى زمن خلافه على بن أبى طالب (رضى الله عنه) أعنى بعد زمن ليس بالقصير من إسلام كعب.

٣-أننا نستبعد أن يكون كعب قد ارتجل قصيدته فى مدح الأنصار حين قيل له فى ذلك، فمن الثابت أن كعبا يعد امتدادا لمذهب أبيه زهير بن أبى سلمى، ذلك المذهب الذى عرف فى الشعر الجاهلى بمذهب (التجويد والتنقيح)، أو (عبيد الشعر)، حيث كان شعراء هذا

المذهب (لا يلقون بالا للارتجال. ولا يعبأون بعطاء القريحة لأول وهلة، بل يخضعون أنفسهم لفن الشعر وأدواته، من التثقيف والتهذيب والتنقيح والتحبير )[١]، لا سيما وأن كعبا كان من الشعراء الذين يقرأون ويكتبون[٢] مما جعله يميل إلى اعداد شعره إعداداً جيداً حتى يصل به إلى الصورة التى ترضى عنها نفسه، ويطمئن إليها ذوقه.

لهذا كله، نرى أن قصيدة كعب بن زهير فى مدح الأنصار قد نظمها الشاعر بعد زمن من إسلامه، ومن ثم مثلت تحولا واضحا فى شعره المدحى، عكس قصيدته (بانت سعاد) التى يبدو أن الشاعر قد أعدها قبل إسلامه، ثم وفد بها على رسول الله صلى الله عليه وسلم ليقدمها دليل توبة، وعلامة ندم.

ثانيا: امتاز أسلوب كعب فى مديح الأنصار بوضوح الالفاظ وسلاسة الأساليب، وإشراق الديباجة وتجنب الغريب من الألفاظ إلى حد كبير، واستعمال ألفاظ وأساليب جديدة لم يكن للشعراء المادحين عهد بها من قبل، من مثل: الذائدين الناس عن أديانهم، الباذلين نفوسهم لنبيهم، يتطهرون كأنه نسك لهم.. وذلك راجع إلى أثر الإسلام والقرآن فى شعره.

---

(١) فى الأدب الجاهلى. دراسة ونقد. للدكتور على على صبح ص٧٩. الطبعة الثانية ١٤١٤هـ - ١٩٩٤م

(٢) انظر: المفصل فى تاريخ العرب قبل الإسلام، لجواد على جـ٨ ص١١١ دار العلم للملايين بيروت

ثالثا: لم يقف التحول الذى طرأ على شعر كعب المدحى -بعد إسلامه - عند المعانى والأفكار، أو الألفاظ والأساليب، فقد تجاوز ذلك إلى منهجه فى بناء قصيدة المدح فى شعره

وبمعاودة النظر فى قصيدة (بانت سعاد) التى نظمها الشاعر فى مدح الرسول صلى الله عليه وسلم ومدح المهاجرين من أصحابه، نلحظ أن كعبا قد سار فى بناء قصيدته على المنهج القديم الذى رأيناه لدى معظم الشعراء الجاهلين.

(أ)فقد تعددت الأغراض فى الإطار الخارجى للقصيدة، حيث استهل الشاعر قصيدته بالغزل فى صاحبته (سعاد)، ثم وصف راحلته وصفا مسهبا دقيقا، ثم تخلص من ذلك كله إلى الاعتذار للرسول صلى الله عليه وسلم ومدحه. ثم مدح المهاجرين من أصحابه.

(ب)التزم الشاعر بعمود الشعر العربى فى الوزن والقافية، والبحر العروضى الواحد، كما التزم بالخصائص الفنية لعمود الشعر العربى فى الأسلوب والمعانى، والخيال بصوره المألوفة من التشبيه والاستعارة والكناية، وما إلى ذلك من ألوان الخيال الشعرى.

(ج)لم يخرج المدح -فى أكثره -عن أوصافه التى كانت شائعة حينذاك، فقد وصف المهاجرين بالعزة والإباء، والقوة، والاستعداد للقتال..الخ

وما من شك فى أن هذا المنهج الذى سار عليه كعب فى بناء

قصيدته (البردة) يكاد يكون هو بذاته منهج قصيدة المدح فى العصر الجاهلى[١]

وبالرجوع إلى قصيدة ( من سره كرم الحياة) التى نظمها كعب فى مدح الأنصار، نلحظ بداية تحول فى منهجه فى بناء قصيدة المدح، إذ نراه يخرج على السنن التقليدى الذى سار عليه أكثر شعراء عصره فى استهلال قصائد المديح بالغزل والوقوف على الأطلال وبكاء آثار الديار، فيستهل قصيدته فى مدح الأنصار بالدخول فى موضوع القصيدة مباشرة، ودون مقدمات غزلية أو طللية، وكأن الشاعر قد رأى فى النهج القديم تكراراً مملاً لا يتناسب مع الحياة الجديدة التى يعيشها فى ظل الإسلام، وعقيدة التوحيد التى آمن بها، والتى كفلت له الأمان والاطمئنان، وهدوء النفس، وسكينة الفؤاد.

---

(١) انظر: منهج قصيدة المدح لدى زهير بن أبى سلمى فى: فى الأدب الجاهلى دراسة ونقد. للدكتور على على صبح ص٧٢ وما بعدها.

## الفصل الثالث

# الخصائص الفنية فى شعره المدحى

بعد هذه الدراسة لمدح المهاجرين والأنصار فى شعر كعب بن زهير يجدر بنا أن نلقى الضوء على أهم الخصائص الفنية والسمات الأسلوبية التى اتسم بها شعره فى مدح المهاجرين والأنصار.

### التجربة الشعرية:

إن النقد الأدبى يقضى بأن التجاريب الشعرية لا يتحقق لها أى نوع من السمو إلى الآفاق الرحيبة والاكتساب لعنصر الثبات والخلود إلا إذا امتزج الشاعر بالحدث الذى هز وجدانه، واستولى على كيانه، فدفعه للتعبير عنه فى إطار من الصدق الفنى الذى يحقق تأثيرا مباشرا فى نفس المتلقى (إذا إن ما يخرج من القلب يقع فى القلب، وما يخرج من اللسان لا يتعدى الآذان) [١]

و لفظ التجربة -هنا- ليس معناها المحاولة،بل ما يعرض للإنسان من فكر أو إحساس أو نحو ذلك. [٢]

(و لا بد من أن تكون التجربة صادقة بأن يكون الشاعر قد عاشها، أو أدمن فيها ملاحظته و استغراقه الفني، و عاش في حقيقتها الفنية) [٣]

---

(١)عيار الشعر. لابن طباطبا العلوى ص٢٢ تحقيق الدكتور عبد العزيز بن نصر المانع

(٢)قواعد النقد الأدبي.تأليف: لاسل آبر كرومبي. ترجمة محمد عوض محمد ط سنة ١٩٣٦

(٣) النقد العربى الحديث ومذاهبه. للدكتور محمد عبد المنعم خفاجى ص٨٥

و بالنظر في شعر المدح لدى كعب بن زهير تبين أنه يسيطر على تجربته، و يستوعبها كاملة، حتى تأتي حية نابضة بعمق المشاعر، و حرارة العاطفة، و صدق الإحساس، و تجلي ذلك - بوضوح- في قصيدته اللامية (بانت سعاد) التي نظمها الشاعر في مدح الرسول صلى الله عليه و سلم و مدح المهاجرين من أصحابه حيث تناول كعب في هذه القصيدة تجربته الشعرية بكل أبعادها، و عبر فيها عن عهدين عاشهما:عهده في الجاهلية بما فيه من ظلام و خوف و فزع..و عهده وهو يخطو نحو الإسلام بما فيه من نور و هداية و سلام.و (سعاد) هذه التي افتتح الشاعر بها قصيدته، ووقف متغزلا بها أمام الرسول صلى الله عليه و سلم و في مسجده(ليست إلا رمزا محسا لزمان آفل)[1] هو حياته فى الجاهلية، حيث عاش فيها ردحاً من الزمن، استقى من نبعها. وتأصلت فيه قيمها وعاداتها، وإن كان يفتقد الأمان الذى نأى عنه وصار بعيدا، والأمان -كما يراه الشاعر- يتمثل فى لقاء الرسول صلى الله عليه وسلم وعفوه عنه، والشاعر يطلبه، فكيف يبلغه ؟ إنها الناقة سفينة الصحراء هى التى توصله إلى بغيته، كما أوصلت أسلافه من قبل، أوصلت النابغة وطرفة والأعشى وغيرهم.

ومن ثم مضى الشاعر فى وصف ناقته. فطال نفسه، وجادت قريحته، وما ذلك إلا إنها ستوصله إلى عزيز إلى نفسه، رسول الله

---

(١) من مقال بعنوان (قصيدة البردة لكعب بن زهير) للدكتور صابر عبد الدايم. مجلة كلية اللغة العربية بالزقازيق العدد العاشر ١٤١٠ هـ - ١٩٩٠م

صلى الله عليه وسلم، والمهاجرين من أصحابه.

ثم ينتهى كعب إلى مدح الرسول صلى الله عليه وسلم متخلصا إليه بأبيات قليلة تصور جزعه وقلقه، طالبا عفو النبى وصفحه قائلا[١]

أنبئت أن رسول الله أوعدنى والعفو عند رسول الله مأمول

مهلا هداك الذى أعطاك نافلة الـ قرآن، فيها مواعيظ وتفصيل

لا تأخذنى بأقوال الوشاة ولم أذنب، ولو كثرت فى الأقاويل

ويمدح الرسول صلى الله عليه وسلم بقوله: [٢]

إن الرسول لسيف يستضاء به مهند من سيوف الله مسلول

ويمدح المهاجرين بقوله: [٣]

فى عصبة من قريش قال قائلهم ببطن مكة، لما أسلموا، زولوا

زالوا، فما زال أنكاس ولا كشف عند اللقاء، ولا ميل معازيل

شم العرانين، أبطال. لبوسهم من نسج داود فى الهيجا، سرابيل

فقد رسم الشاعر فى هذه الآبيات صورة للمهاجرين (تجمع بين صدق الأداء، وبراعة الوصف، وإظهار الدقائق والتفاصيل، وحرارة الإحساس)[٤]

---

(١) شرح ديوان كعب بن زهير، صنعة أبى سعيد السكرى ص١٩ وما بعدها

(٢) شرح ديوان كعب بن زهير ص٢٣

(٣) المصدر السابق ص٢٣

(٤) ابن المعتز وأثره فى الأدب والنقد والبيان. للدكتور خفاجى ص١٩٣

هكذا كانت التجربة -لدى شاعرنا - قوية ومؤثرة فى مدح المهاجرين، وإن كنا نرى أن تجربته فى مدح الأنصار لا تصل إلى هذا المستوى، حيث لم ينبع الدافع من أعماق نفسه، ومن ثم برزت التجربة ضعيفة ولم يكن فى مقدور كعب السيطرة عليها، فانساق نحو المبالغة إرضاء لباعث من خارج نفسه.

ويبدو أن من أسباب مدح الأنصار أن كعبا لم يحالفه التوفيق فى قوله يمدح المهاجرين:(١)

يمشون مشى الجمال الزهر. يعصمهم ضرب إذا عرد السود التنابيل

يعرض فى الشطر الثانى بالأنصار، لأنهم أغلظوا له القول عند لقائه بالرسول صلى الله عليه وسلم. وهذا التعريض يخالف الواقع الإسلامى، فقد آخى الرسول صلى الله عليه وسلم بين المهاجرين والأنصار، ولذلك رغبه النبى صلى الله عليه وسلم فى مدح الأنصار، فمدحهم فى قصيدته:

من سره كرم الحياة فلا يزل فى مقنب من صالحى الأنصار(٢)

بيد أن هذا لا يضير شاعرنا. فحسبه أنه كان ذا تجاريب شعرية علية فى أكثر مدائحه، صور فيها نوازع نفسه، وما انطوى عليه وجدانه.

## العاطفة:

العاطفة من أهم عناصر النص الأدبى، فهى تعد (قوام الأسلوب

---

(١) شرح ديوان كعب بن زهير ص ٢٤

(٢) انظر القصيدة فى: شرح ديوان كعب بن زهير ص٢٥ - ٤١

الأدبى، وركنه المكين. إذ أنها تمتزج بالأفكار، وتسيطر على الألفاظ فى اختيارها، وموسيقاها. وفى نسقها..) [١]

وهى (تلك القوة الوجدانية التى تدفع الأديب إلى الإفصاح عما يجول بخاطره، ويدور فى خلده ليبعث أثرها الذى أحس بـه إلـى نفـس القارئ أو السامع) [٢]

وبتتبع مدح المهاجرين والأنصار فى شعر كعب بن زهير تبـين أن العاطفة التى سيطرت على كيان الشاعر فى أكثر مدائحه قد تجلـت فى مظهرين أساسيين:

الأول: الحب الجم لممدوحيه. ومن ثم اتسم مديح كعب للمهـاجرين بحرارة العاطفة وتوقدها. مما ينم عن حب الشاعر لهـم، ونقمتـه الشديدة على أعدائهم. ولعل ذلك راجع إلى موقفهم منه يـوم وفـد على رسول الله صلى الله عليه وسلم معلنا إسلامه وتوبته، حتى إنه ليخص بعضهم بمدائحه. كما فى مديحه لعلى بن أبى طالب[٣] رضى الله عنه. كما يعزى حبه لهم إلى حبه لرسول الله صـلى الله عليـه وسلم فهم أصحابه وأقرب الناس إليه إضافة إلى إيمانـه وولائـه الصادق للإسلام، ولرسوله محمد عليه الصلاة والسلام.

---

(١) النقد الأدبى الحديث.للدكتور محمد غنيمى هلال ص٤٠٠ط الثالثة ١٩٦٤م

(٢) من مقال بعنوان (معايير العاطفة الأدبية) للدكتور على محمدين، مجلة كلية الدراسات الإسلامية والعربية للبنات بسوهاج.العدد السادس ١٤١٠هـ -١٩٩٠م (ص١٣٥)

(٣) انظر من هذا البحث. وراجع شرح ديوان كعب بن زهير ص٢٥٤

الثانى: الإعجاب بالفضائل النفسية التى اتسم بها المهاجرون من صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم كالشجاعة والكرم، والإباء، والعزة، ومن ثم أفصح كعب عن مشاعره وترجم عن أحاسيسه إزاء هذه الفضائل النفسية والسجايا الأخلاقية، كما رأينا فى النماذج التى ذكرناها.

وهذا -بحق- دليل الصدق والأمانة فى نقل المشاعر، إذ لا يكون المادح صادقا إلا إذا عبر عن أحاسيسه إزاء ممدوحه فى واقعية بعيدة عن المبالغة والتهويل.

ولعل شاعرنا قد ورث الصدق فى المديح عن أبيه زهير، إذ عرف عنه أنه كان صادقا فى مديحه. لا يمدح الرجل إلا بما يكون فيه كما قال عمر بن الخطاب رضى الله عنه.(١)

ومن خلال دراستنا لمدح المهاجرين والأنصار فى شعر كعب بن زهير نلحظ أن عاطفة الشاعر فى أكثر مدائحه تتسم بما يلى:

(أ)الصدق: إذ إنها تنبعث عن دافع صحيح غير زائف ولا مصطنع، هو الحب الإلهى والحب المحمدى الذى سيطر على وجدان الشاعر وكيانه، وترتب عليه ولاء صادق للإسلام ولرسوله صلى الله عليه وسلم (قل إن كنتم تحبون الله فاتبعونى يحببكم الله ويغفر لكم ذنوبكم)(٢)، ثم حب الصحابة لإيمانهم وجهادهم وفضلهم وسبقهم

---

(١)انظر: العمدة لابن رشيق جـ١ ص٩٨ تحقيق محمد محيى الدين عبد الحميد ط دار الجيل سنة ١٩٨١م

(٢)سورة آل عمران الآية ٣١

وتقدير الرسول صلى الله عليه وسلم لهم فهم أفضل المسلمين بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم.

(ب)الثبات: (ويراد بثبات العاطفة استمرار سلطانها على نفس المنشئ ما دام يشعر، أو يكتب، أو يخطب لتبقى القوة شائعة فى فصول الآثر الأدبى، لا تذهب حرارتها) [١]

وهذا ما لمسناه فى شاعرنا، لا سيما فى مدائحه لرسول صلى الله عليه وسلم وللمهجرين من صحابته، الذين أحبهم، وأعجب بفضائلهم، ومن ثم أبدع فى مديحهم، كما رأينا فى النماذج التى ذكرناها.

(ج)القوة: ولعل من دلائل هذه القوة ما تبعثه مدائح كعب بن زهير فينا من مشاعر فياضة، وإعجاب بالغ، مما جعل شعراء المدائح يقتفون أثرها، وينهجون نهجها إلى يومنا هذا.

(د)السمو: فهى تبعث فى نفوسنا -إضافة إلى الحب الإلهى والحب المحمدى- حب المكارم، وتمجيد الفضائل والرغبة الملحة فى الاقتداء بالرسول صلى الله عليه وسلم، والتخلق بأخلاق هؤلاء الأطهار من صحابته الذين أضفى عليهم الشاعر صفات: العزة والإباء، والشجاعة والكرم. والجهاد فى سبيل الله، والذود عن الدين، وبذل النفس للنبى صلى الله عليه وسلم، وانتهاج طريق الحق والعدل والإيمان، ومقاومة أهل الكفر والضلال، ومخالفة أرباب الزور والكذب والبهتان.

وهكذا اتسمت العاطفة لدى كعب بن زهير فى مدح المهاجرين

---

(١) أصول النقد الأدبى. للأستاذ أحمد الشايب ص١٩٦

والأنصار بالصدق والقوة والثبات، والسمو والاستمرار، وهى مقاييس العاطفة الجيدة كما يرى أكثر النقاد. (١)

**الأفكار والمعانى:**

الفكرة أو المعنى أو المضمون من أهم عناصر الأدب ومقوماته، وهى الأساس الأول للاعتراف بقيمته ذلك لأن الأدب ليس اسلوبا وتعبيرا فحسب، ومن ثم قال أبو هلال العسكرى فى كتابه (الصناعتين) (إن الكلام ألفاظ تشتمل على معان تدل عليها، وتعبر عنها، فيحتاج صاحب البلاغة إلى إصابة المعنى كحاجته إلى تحسين اللفظ، لأن المدار بعد على إصابة المعنى، ولأن المعانى تحل من الكلام محل الأبدان، والألفاظ تجرى معها مجرى الكسوة) (٢)

وقد فطن عبد القاهر الجرجانى إلى ذلك حين قال (إن اللفظة رمز لمعناها، رمز للفكرة أو التجربة، أو العاطفة أو المعنى، وقيمتها فيما ترمز إليه، وليست البلاغة فيها وحدها) (٣)

وعبد القاهر فى ذلك إنما يتلاقى مع كل النقاد العالميين، القدامى والمحدثين. (٤)

وبالرجوع إلى النماذج التى ذكرناها من شعر كعب بن زهير فى مدح المهاجرين والأنصار نرى أن الشاعر قد أولى أفكاره ومعانيه

---

(١) انظر: أصول النقد الأدبى لأحمد الشايب ص١٧٩، وأصول النقد للدكتور خفاجى ص٤٣ وما بعدها.

(٢) الصناعتين: لأبى هلال العسكرى ص٧٥ ط الحلبى سنة ١٩٧١

(٣) دلائل الإعجاز. لعبد القاهر الجرجانى ص٣٤١

(٤) النقد العربى الحديث ومذاهبه. للدكتور محمد عبد المنعم خفاجى ص٩٤

عناية واضحة، إذ تتسم أفكاره ومعانيه بعدة سمات، أهمها:

(أ)وضوح الأفكار وقرب المعانى:

فقد كانت الأفكار والمعانى فى شعر المديح لدى شاعرنا قريبة المأتى، واضحة القصد، سهلة التناول، وكانت وسيلة الشاعر إلى تحقيق ذلك:

١-الاستعانة (بالعناصر الشارحة. أو المقيدة أو المخيلة، كالنعت، والمضاف إليه، والحال، والتمييز والاستثناء، فذلك من عوامل إيضاح المعانى وتحديدها)[١]،كما فى قول كعب يمدح المهاجرين[٢]:

شم العرانين، أبطال، لبوسهم من نسج داود، فى الهيجا،سرابيل بيض، سوابغ، قد شكت لها حلق كأنها حلق القفعاء، مجدول

٢-أستعمال الكلمات المتقابلة، المتضادة المعانى( إذ كانت مقابلة الأضداد مما يزيد فى كل، وبيان خواصه) [٣]

كما فى قوله يمتدح المهاجرين أيضا [٤]:

يمشون مشى الجمال الزهر، يعصمهم ضرب، إذا عرد السود التنابيل

فكعب – فى هذا البيت- يضفى على المهاجرين صفات: القوة والهيبة والوقار، ويصورهم وهم يتحركون فى وقار وعظمة ومهابة

---

(١) الأسلوب. للأستاذ أحمد الشايب ص١٨٨

(٢) شرح ديوان كعب بن زهير ص٢٣، ٢٤

(٣) الأسلوب. لأحمد الشايب ص١٨٩

(٤) شرح ديوان كعب بن زهير ص٢٤

وكأنهم الجمال الناض، ويستخدم المقابلة التى تزيد المعنى جلاء ووضوحاً، كالمقابلة بين صفة البياض وصفة السواد، والمقابلة بين الجمال بطولها والتنابيل أى القصار، وأيضا المقابلة بين الإقدام والإحجام (يمشون، عرد).

٣-البعد عن الغريب الوحشى، والعمد إلى لغة الناس وما يستطيعون إدراكه، (وذلك يختلف باختلاف العصور وطبقات الناس، فلكل الفاظ، ومستوى أليق به) (١)

ولعلنا نلحظ أن معانى شاعرنا فى مديحه واضحة، لا لبس فيها ولا غموض، كما أنها بعيدة عن المعانى العقلية والفلسفية المعقدة.

(ب)جمع كعب بن زهير فى مديحه للمهاجرين والأنصار بين المعانى القديمة التى ألفناها لدى شعراء المديح فى العصر الجاهلى من مثل: العزة والإباء والقوة والشجاعة والاستعداد للقاء الأعداء والكرم..

والمعانى الجديدة التى اقتضتها الحياة الإسلامية وما رسمه الدين الحنيف من قيم ومثل وفضائل كالتقى، والذود عن الدين، والجهاد فى سبيل الله، وبذل النفس للنبى صلى الله عليه وسلم، والقضاء على الكفر وأهله وما من شك فى أن هذه المعانى الجديدة تعد من قبيل التغيير الذى طرأ على شعر كعب المدحى بعد أن دخل فى الإسلام،(ولا ريب فى أن المثل العليا فى الإسلام قد أضافت إلى شعر

---

(١) الأسلوب. للأستاذ أحمد الشايب ص١٨٩

المديح مادة ومعانى جديدة) [١]

(ج) طرافة المعنى أحيانا:

إن الباحث المدقق يحكم بعد دراسة المدح فى شعر كعب – بمدى قدرة الشاعر على ابتكار المعانى الطريفة التى لم يسبق إليها، نتيجة الموهبة الأصيلة، والثقافة الواسعة، والخيال المبدع، والحب الصادق لله ولرسوله صلى الله عليه وسلم.

ولعل من أبرز ما يمثل طرافة المعنى لدى كعب، قوله يمدح الرسول صلى الله عليه وسلم: [٢]

تحمله الناقة الأدماء معتجرا بالبرد كالبدر جلى ليلة الظلم

وفى عطافيه أو أثناء ريطته ما يطعم الله من دين ومن كرم

فالشاعر فى هذين البيتين يضفى على الرسول صلى الله عليه وسلم صفتين أعجب بهما النقاد لطرافتهما، (ولعل سر هذا الإعجاب ناشئ من أن بيتى كعب يصوران ممدوحاً قد استكمل ناحيتى الكمال الجسمى والنفسى، فهو جميل كالبدر، وربما لحظ فى هذا التشبيه أنه إلى جانب جمال الوجه يجلى ظلام الضلال وليل الإشراك والكفر، وهو يحمل بين جنبيه دينا وخلقا كريما، والشاعر هنا يصور إنساناً مثاليا كاملا) [٣]

---

(١) فن المديح وتطوره فى الشعر العربى: أحمد أبو حاقة ص١٣٩

(٢) العمدة: لابن رشيق جـ٢ ص١٣٦ ط دار الجبل سنة١٩٨١

(٣) أسس النقد الأدبى عند العرب. للدكتور أحمد أحمد بدوى ص٢٠٥

(د)ترتيب الفكر، وتقريب المعنى إلى الإذهان:

ولعل من أبرز ما اتسمت به الأفكار والمعانى فى مدح المهاجرين والأنصار عند كعب بن زهير: ترتيب الفكر، وتقريب المعنى إلى الأذهان، وذلك بتصوير الواقع، والإكثار من التشبيهات التى تعين على تخيل الصورة التى يرسمها لممدوحه، كقوله يمدح الأنصار[١]:

تزن الجبال رزانة أحلامهم وأكفهم خلف من الأمطار
المكرهين السمهرى بأذرع كصواقل الهندى غير قصار
والناظرين بأعين محمرة كالجمر، غير كليلة الإبصار

ولعل ذلك راجع إلى ما هذب نفسه، ورقق طبعه من عقيدة صادقة، وإيمان قوى، وما خصب خياله من اطمئنان وأمان، وثقافة واسعة فى ظل الإسلام ونبيه عليه الصلاة والسلام.

(هـ)وفى شعر كعب المدحى ميل دائم إلى الحكم والكلام الجامع، وإرسال المثل، حتى لا تكاد تخلو له قصيدة من ذلك، فهو الذى يقول: (إن الأمانى والأحلام تضليل)، و(فكل ما قدر الرحمن مفعول) و(من يشبه أباه فما ظلم).

و(كل ابن أنثى وإن طالت سلامته * يوما على آلة حدباء محمول)

وذلك إنما ينم عن سعة ثقافته، وطول خبرته، وتملكه لناصية البيان والتعبير.

---

(١) شرح ديوان كعب بن زهير. صنعة الإمام أبى سعيد السكرى ص٢٦

وهكذا تبدو براعة كعب فى معانيه، وفى طريقة عرضها، واتسامها بالوضوح، وقرب المأتى، وتجنب الغرابة والغموض والتعقيد، وطرافة المعنى وجدته أحيانا.

**الخيال والصورة الشعرية:**

من الضرورى أن يحتوى الشعر بجانب الوزن والقافية على (إلهام فنى رائع، وشعور بالجمال مرهف وإحساس بالكون والطبيعة والبيئة دقيق) (١)

ومن ثم يعرف "رسكن" الشعر بأنه: إبراز العواطف النبيلة بطريق الخيال(٢)، ويقول "ورد زورث": الشعر هو الحق ينقله الشعور حيا إلى القلب(٣)، والذى يجعل الشاعر شاعراً هو تلك القدرة على التصوير(٤)

وقد كان كعب بن زهير كذلك، حيث إنه يجيد التصوير للممدوح (حتى يعطى متذوقه صورة واضحة عن هذا الموصوف) (٥)

فقد أبدع شاعرنا فى خيالاته، وبرع فى صوره الشعرية، ورسم صورا جيدة لممدوحيه من المهاجرين والأنصار، كما رأينا فى أكثر النماذج التى ذكرناها.

---

(١) صور من الفكر العربى وتاريخ الإسلام. للدكتور خفاجى ص١٩٣

(٢) النقد الأدبى لأحمد أمين جـ١ ص٦٣

(٣) المرجع السابق جـ١ ص٦٣

(٤) المرجع نفسه جـ١ ص٦٨

(٥) نصوص نقدية لأعلام النقاد العرب. للدكتور محمد السعدى فرهود ص٢٠٠ ط الثانية

وقد امتاز الخيال عنده – بالسمات التالية:

(أ)الدقة: ونعنى بها أن (يلتقط الشاعر كل ما رأى وما سمع طول حياته، ولا يفوته منظر، حتى ولو كان من أدق المشاهد وأخفاها، ولو حفيف أوراق الشجر، ثم يخزنه، ثم يهيم به الخيال، فيستخرج منه صورا وآراء متناسبة متسقة فى الأوقات الملائمة ) (١)

فالخيال (هو الملكة التى يستطيع بها الأدباء تأليف صورهم، وهذه الملكة تتحكم فى الإحساسات السابقة التى لا حصر لها، والتى تظل محبوسة فى مخيلتهم، ثم تعيد بناءها من جديد) (٢)

ولعلنا نلحظ دقة التصوير فى قول شاعرنا يمدح المهاجرين، ويضفى عليهم صفات العزة والإباء والشجاعة فيقول: (٣)

شم العرانين أبطال لبوسهم من نسج داود، فى الهيجا سرابيل

بيض، سوابغ، قد شكت لها حلق كأنها حلق القفعاء، مجدول

فالمهاجرون ذوو عزة وأنفة، وهم أبطال شجعان، لباسهم -فى المعارك- سرابيل من نسج داود، ويلتقط الشاعر بحاسته الفنية ومشاهداته السابقة دقة التصوير للسرابيل التى تحمى هؤلاء الأبطال، فهى مصنوعة من الحديد، مجلوة، طويلة، ضافية أدخل

---

(١) قصة الأدب المعاصر فى مصر الحديثة. للدكتور محمد عبد المنعم خفاجى جـ٢ ص٤٦

(٢) النقد العربى الحديث ومذاهبه، للدكتور محمد عبد المنعم خفاجى ص٥١

(٣) جمهرة أشعار العرب ص٣٧١ ط دار الكتب العلمية، بيروت

بعضها فى بعض، ويربط الشاعر ما بين هذا الواقع للسرابيل وبين الطبيعة النباتية المتماسكة، فيجعل حلق هذه السرابيل وقد أدخل بعضها فى بعض كأنها حلق القفعاء، وهو نبات ينبسط على وجه الأرض له حلق كالخواتم.

وقد أجاد كعب فى صوغ أجزاء هذه الصورة الفنية لأبطال الإسلام المهاجرين، حيث جعل الألفاظ ناطقة بثبات هذه الصورة واستمرارها، فصاغها فى إطار الجملة الإسمية الدالة على الدوام والاستمرار.

(ب)الطرافة: فقد كان كعب بن زهير ذا خيال خصب مبدع ساعده على ابتكار الصور والتأليف بينها، وقد أضفى عليها الكثير من الجمال والرونق، إذ تميز بقدرة عجيبة وبراعة فائقة فى التخيل، وطرافة التصوير.

ومن الخيالات الطريفة له. قوله يمدح الأنصار[١]

يتطهرون كأنه نسك لهم بدماء من علقوا من الكفار

فالشاعر يمتدح الأنصار بجهادهم فى سبيل الله، فيبرز هذا المعنى فى صورة طريفة، فيقول:

إن الأنصار قوم يحسبون قتل الكفار نسكا وعبادة تقربهم من الله تعالى، ومن ثم فهم يتطهرون بدماء من يقتلون من أعداء الله تعالى.

(ج)الجمال: ولعل من أبرز ما يتسم به الخيال لدى كعب بن زهير

---

(١) شرح ديوان كعب بن زهير ص٣٥

الجمال فى عرض الصورة، وهى سمة لها قيمتها وأهميتها فى التصوير الشعرى، إذ إن الصورة الجميلة تترك فى النفس أثراً جميلا يبعث السرور والارتياح، ويرضى الذوق السليم.

ونذكر من ذلك على سبيل التمثيل قوله يمدح الرسول صلى الله عليه وسلم(١):

تحمله الناقة الأدماء معتبرا بالبرد، كالبدر جلى ليلة الظلم
وفى عطافيه أو أثناء ريطته ما يعلم الله من دين ومن كرم

فالشاعر – فى هذين البيتين – يضفى على الرسول صلى الله عليه وسلم صفة الجمال الجسمى، فهو جميل كالبدر بياضا ونورا وحسنا، بل إنه يفيض من نوره على ما حوله من كائنات، حتى إنه ليجلى ظلام الضلال. وليل الإشراك والكفر، فهذا النور ليس له حدود، بل إن له تأثيرا بالغا على ما حوله من كائنات حيث ينقلها من حالة الحيرة والضياع إلى الهداية والإيمان.

ويضفى عليه –فى البيت الثانى– صفة الجمال النفسى، فهو يحمل بين جنبيه دينا وخلقا كريما بلا حدود يعلمها البشر، إذ لا يعلم قدرها إلا الله سبحانه وتعالى.

(د)التنسيق: ويراد به عناية الشاعر بما يرسم من الصور، بحيث يتمكن من استيفاء عناصرها الضرورية المتمثلة فى التصوير الكلى بعناصره المختلفة من الصوت والحركة والألوان والظلال وما إلى ذلك.

---

(١) العمدة لابن رشيق جـ٢ ص١٣٦.

وفى هذا الإطار تندرج لحقيقة فينفخ فيها الشاعر من حسه وروحه بأن (يلونها ويوشيها بالصور والتشبيهات والكنايات وما إلى ذلك من فنون التصوير وألوان البلاغة، فتلبس بذلك أزياء براقة مثيرة تلعب بالعواطف، وتأخذ بالمشاعر، وتستهوى النفوس ) [١]

يرسم كعب بن زهير صورة فنية لعظمة المهاجرين ومهابتهم فى إقدامهم على ساحة الوغى، فيقول[٢]

يمشون مشى الجمال الزهر، يعصمهم ضرب، إذا عرد السود التنابيل

يصور الشاعر حركة هؤلاء الأبطال وهم يتحركون – فى تؤدة ومهابة – إلى ساحات القتال، وكأنهم الجمال البيض عظمة ووقاراً وهيبة فى مشهد رائع جميل.

ولعلنا نلحظ أن الحركة فى الصورة تؤازرها الألوان، حيث وصف الشاعر الجمال بالبياض، وتلازمها الأصوات من وقع الأقدام، وجلبة المقاتلين..

ومثل ذلك نجده فى هذه الصورة الفنية التى رسمها كعب لعزة ومنعة الأنصار، حيث يقول [٣]:

لا يشتكون الموت إن نزلت بهم شهباء ذات معاقم وأوار

وإذا نزلت ليمنعوك إليهم أصبحت عند معاقل الأغفار

---

(١) دراسات فى النقد الأدبى. للدكتور حسن جاد ص٦ ط أولى سنة ١٩٧٧

(٢) شرح ديوان كعب بن زهير ص٢٤ ط الدار القومية للطباعة والنشر

(٣) شرح ديوان كعب بن زهير ص٣٠، ٣١

فقد رسم الشاعر -فى هذين البيتين -صورة كلية لعزة الأنصار وإبائهم ومنعتهم، فهم لا يرهبون الموت ولا يألمونه إن نزلت بهم كتيبة يبرق حديدها، ويلمع سلاحها، وتسبب الهلاك والقتلى، وإذا ما نزل بهم مستجير حموه حتى لكأنه فى حصن حصين.

وعناصر هذه الصورة الكلية ألوان نراها فى بريق الحديد والسلاح، وأصوات نسمعها فى جلبات المتقاتلين وضربات السيوف وطعنات الرماح تؤازر حركاتها فى الضرب والطعن، وفى (نزلت بهم ) و (نزلت إليهم) فشعر كعب فى أكثره تصوير، وهو(تصوير دقيق يسمو إلى درجة عالية من الفن، فيه كثير من الصبر فى تتبع الموصوفات، واختيار مواد التشبيهات، والتعقل فى التنسيق والتأليف، وتنخل التعابير، وتثقيف القوافى، وفيه قوة الخيال) [١]

هكذا تميز كعب بن زهير فى مدح المهاجرين والأنصار بخصوبة الخيال، وروعة التصوير، بفضل موهبته الفطرية واستعداده الشخصى، وصفاء خاطره، وإجادته فن التصوير والتعبير.

**الألفاظ والأساليب:**

بمعاودة النظر فى النماذج التى ذكرناها من شعر المدح لكعب بن زهير نلحظ أن شاعرنا كان يعنى بالصياغة الشعرية عناية كبيرة،

---

(١) من مقال بعنوان (كعب بن زهير. دراسة تحليلية أدبية فى جوانب من حياته وشعره) للدكتور عبد الغفور على عفيفى. مجلة كلية اللغة العربية بالزقازيق العدد الثامن ١٤٠٨هـ- ١٩٨٨م

حيث صاغ شعره فى قوالب عربية فصيحة، لا لبس فيها ولا غموض، ولا ركاكة ولا ابتذال، وهى تتسم بجزالة الألفاظ ووضوحها، ورصانة الأساليب وإحكام نسجها، مما يلذ القارئ ويمتع السامع.

وما من شك فى أن (أصحاب الطبع والذوق من أدباء العرب ونقادهم – وفى صدارتهم الجاحظ – لا يختلفون فى تقديم الفن الكلامى.. فالجمال يكمن عندهم فى الصورة الخلابة، والتعبير الذى ترف حوله الظلال، وتتزاحم فيه الإشارات والايحاءات، حتى إن الملتقى لهذا الفن يحس إحساسا قويا أن هناك قوة غامضة ترتفع بشعوره وخياله إلى عالم يموج بالرؤى، ويعمر بالمشاهد التى لها فى التعبير إشارات وإيحاءات) [١]

مما جعل الآمدى يقول فى كتابه (الموازنة): [٢]

(وليس الشعر عند أهل العلم به إلا حسن التأنى، وقرب المأخذ، واختيار الكلام، ووضع الألفاظ فى مواضعها، فإن اتفق مع هذا معنى لطيف، أو حكمة غريبة، أو أدب حسن، فذلك زائد فى بهاء الكلام، وإن لم يتفق فقد قام الكلام بنفسه، واستغنى به عما سواه)

وبتتبع مدح المهاجرين والأنصار فى شعر كعب بن زهير يتبين أن

---

(١) مذاهب النقد وقضاياه. للدكتور عبد الرحمن عثمان ص١٥٠ الطبعة الأولى ١٣٩٥هـ-١٩٧٥م.

(٢) الموازنة للآمدى ص٢١١ (تحقيق محمد محى الدين عبد الحميد) المكتبة العلمية بيروت

ألفاظه وأساليبه تميزت بما يلى:

(أ)جزالة الألفاظ وفصاحتها، ومتانة الأساليب وإحكام نسجها، والبعد عن التعقيد اللفظى والمعنوى، وتجنب حوشى الكلام وغريبه، كما فى قوله يمدح على بن أبى طالب رضى الله عنه: (١)

إن عليا لميمون نقيبته بالصالحات من الأعمال مشهور
صهر النبى وخير الناس مفتخرا فكل من رامه بالفخر مفخور
صلى الطهور مع الأمى أولهم قبل المعاد ورب الناس مكفور
مقاوم لطغاة الشرك يضربهم حتى استقاموا ودين الله منصور

فنحن نرى فى هذه الأبيات الألفاظ الجزلة القوية، والاساليب المحكمة، فشاعرنا أقرب ما يكون فى هينة تأليف الفاظه، ومتانة أساليبه إلى ما كان عليه شعراء الجاهلية، وإن كنا نلحظ فى هذه الأبيات ميل شاعرنا إلى جزالة اللفظ مع وضوحه، وحسن جرسه دون غرابته وحوشيته، كما مال إلى سلاسة الاسلوب وإشراقه وقوة تأثيره.

ويبدو أن الإسلام كان له أثر فى رقة شعر كعب فى هذه الآبيات، حيث (اختار الناس من الكلام ألينه وأسهله، وعمدوا إلى كل شىء ذى أسماء كثيرة أختاروا أحسنها سمعا، وألطفها من القلب موقعا، وإلى ما للعرب فيه لغات فاقتصروا على أسلسها وأشرقها) (٢)

---

(١)شرح ديوان كعب بن زهير. صنعة الإمام أبى سعيد السكرى ص٢٥٤

(٢)الوساطة بين المتنبى وخصومه للقاضى الجرجانى ص١٨ط أولى سنة ١٩٦٦م

(ب)الدقة فى اختيار الكلمة والمواءمة بين الألفاظ والمعانى:

ولعل من أبرز السمات التى تتسم بها ألفاظ كعب وأساليبه فى مدح المهاجرين والأنصار: دقته فى اختيار ألفاظه، وقدرته على المواءمة بين ألفاظه ومعانيه، لا سيما وأنه كان من الشعراء المجودين الذين يتتبعون شعرهم بالتنقيح والتهذيب والتثقيف.

ونذكر من شعره -على سبيل التمثيل - قوله يمدح المهاجرين [١]:

يمشون مشى الجمال الزهر، يعصمهم ضرب، إذا عرد السود التنابيل

لا يفرحون إذا نالت رماحهم قوماً، وليسوا مجازيعاً إذا نيلوا

لا يقطع الطعن إلا فى نحورهم ما إن لهم عن حياض الموت تهليل

فشاعرنا فى هذه الآبيات يمتدح المهاجرين -كما سبق أن ذكرنا- ويضفى عليهم صفات: الشجاعة والقوة والسيادة، والثبات والإقدام.

وبالتأمل فى صياغة هذه الابيات نتبين أن الشاعر كان دقيقا فى اختيار كلماته، حريصا على المواءمة بين ألفاظه ومعانيه، فقد بدئت الأبيات الثلاثة بالفعل المضارع (يمشون-لا يفرحون-لا يقع)مما يدل على أن هذه الصفات التى أضفاها الشاعر على ممدوحيه متجددة ومتتابعة، فالفعل المضارع يدل على التجدد والحدوث، واستخدام الشاعر لأداة الشرط (إذا) فى قوله (إذا نالت رماحهم يوحى بأن انتصارهم ثابت ويقين وليس مجرد ظن أو احتمال أووهم.

---

(١) شرح ديوان كعب بن زهير ص٢٤، ٢٥

كما أن أسلوب القصر فى قوله ( لا يقع الطعن إلا فى نحورهم) يؤكد صفة الإقدام فيهم وقصرها عليهم.

(ج)البساطة والصدق والوضوح:

فقد اتسمت ألفاظ كعب وأساليبه فى مدح المهاجرين والأنصار بالبساطة والصدق والوضوح، وعدم التكلف أو المبالغة أو الإغراق فى التيه أو فيما وراء الطبيعة، كما لمسنا ذلك فى أكثر النماذج التى ذكرناها.

ولنقرأ لشاعرنا هذين البيتين فى مدح الرسول صلى الله عليه وسلم لنرى مدى ما امتازت به ألفاظهما واساليبهما من بساطة وصدق ووضوح، يقول كعب[1]:

مسح النبى جبينه فله بياض بالخدود
وبوجهه ديباجة كرم النبوة والجدود

يقول كعب (رضى الله عنه): إن النبى صلى الله عليه وسلم قد مر بيده الكريمة على جبينه فتوهج الخدان نوراً وبياضا، وما ذاك الإشراق الذى يلوح فى وجه النبى صلى الله عليه وسلم إلا من نور النبوة وشرف المحتد.

فقد أضفى كعب رضى الله عنه على النبى صلى الله عليه وسلم صفتى: الجمال الجسمى، والكمال النفسى، والجمال الجسمى الذى يتمثل فى بياض الخدود ونور الوجه وإشراقه نابع عن الكمال

---

(١) شرح ديوان كعب بن زهير ص٢٥٩ .

النفسى الذى يتمثل فى كرم النبوة، وشرف النسب، ومن ثم فهو ثابت كريم لأن منبعه كريم وشريف.

ولعلنا نلحظ أن البياض -عند العرب- يوحى بالشرف والسيادة والنقاء والصفاء والطهارة وقد عبر شاعرنا عن هذا كله فى ألفاظ تفيض رقة وعذوبة ووضوحهما وإشراقا، وهو ما يدفعنا إلى الاعجاب به، والاحساس بلذة فنية حين نقرؤه، بل إن هذه السمة تمنح شعره حيوية وقوة تأثير، فكلما (كانت اللفظة أحلى كان ذكرها فى الشعر أشهى) (١)

(د)حسن الأداء، وحذف فضول الكلام وحشوه، بحيث يودع اللفظ اليسير المعنى الكثير، كما فى قول كعب يمدح الرسول صلى الله عليه وسلم.

إن الرسول لنور يستضاء به وصارم من سيوف الله مسلول

فالمتأمل فى هذا البيت يلحظ أنه على قلة ألفاظه يحمل معنى كثيرا ربما يضيق المقام عن شرحه، وهو يمتاز بوضوح الفاظه، وسلاسة اسلوبه، وخلوه من الحشو والفضول.

ولعلنا نلحظ حسن أداء الشاعر فى صياغته وتأليف ألفاظه، واختيار كلماته بإيحاءاتها ودلالاتها.

فالتأكيد بأن واللام يقوى الأسلوب ويؤكده، واختيار لفظ (الرسول)

---

(١) العمدة لابن رشيق جـ٢ ص١٢٢

يوحى باقتناع كعب رضى الله عنه برسالة محمد صلى الله عليه وسلم ونبوته، وتنكير كلمة (نور) يفيد التعظيم وبناء الفعل (يستضاء به) للمجهول يوحى بان ذلك النور هداية لكل النفوس التواقة إلى الإيمان والأمان فى كل زمان، وفى كل مكان، والرسول صلى الله عليه وسلم سيف من سيوف الله فيه تعظيم بإضافته إلى الله تعالى، وفيه إيحاء بأنه سيف الحق والعدل والإيمان، وتنكير (مسلول) يدل على التعظيم، ويوحى بأنه مخرج من غمده دائما مرفوع للدفاع عن الإسلام والمسلمين.

هكذا اتسمت ألفاظ الشاعر وأساليبه فى مدح المهاجرين والأنصار بسمات فنية أصيلة تدل على موهبته الشعرية، وإبداعاته الأدبية، وإجادته فن التعبير والبيان والتصوير.

**الموسيقى:**

تعد الموسيقى من أبرز الخصائص الفنية التى أضفت على شعر المدح عند كعب بن زهير جمالا ورقة، وأكسبته قيمة جمالية متميزة.

فالشعر (فن جميل، عماده الخيال والعاطفة والتصوير والموسيقى والوزن)[١]، فالموسيقى عنصر جوهرى من عناصر الصياغة الشعرية.

وتعتمد الموسيقى على الوزن والقافية فى الإطار الخارجى، أما الموسيقى الداخلية فهى مستوحاة من قدرة الشاعر على اختيار

---

(١) عروض الشعر العربى. للدكتور محمد عبد المنعم خفاجى ص٤

كلماته وحروفه اختيارا دقيقا[١]

وتتسم الموسيقى فى شعر المدح عند كعب بن زهير بالعذوبة والرقة، إذ كان الرجل يتمتع بحس موسيقى فطرى، وذوق فنى ساعده على إشاعة الجو الموسيقى فى شعره.

ويبدو لنا أن من سبل الشاعر إلى تحقيق ذلك:

(أ)أنه كان يسلك فى صوغ شعره المدحى طريقة الإيضاح، بان يجعل معانيه جزلة، وألفاظه نقية، غير مبتذلة ولا سوقية، فيختار من الألفاظ أجملها وقعاً وأعذبها جرسا، كما ذكرنا فى حديثنا عن الألفاظ والأساليب فى شعره.

(ب)عنايته ببعض وجوه البديع التى تضفى على الكلام رونقا وسحرا ووضوحا وزيادة بيان من أمثلة ذلك المقابلة التى كان شاعرنا يعنى بها إذ يستعين بها على توضيح معانيه، وتنسيق صوره، وإشاعة الجو الموسيقى فى شعره، كما فى قوله يمتدح المهاجرين: [٢]

لا يفرحون إذا نالت رماحهم قوما، وليسوا مجازيعا إذا نيلوا

لا يقع الطعن إلا فى نحورهم وما لهم عن حياض الموت تهليل

---

(١) النقد العربى الحديث ومذاهبه. للدكتور خفاجى ص٥٣

(٢) جمهرة أشعار العرب ص٣٧١ دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى ١٤٠٦هـ- ١٩٨٦م

حيث نجد عناية الشاعر بإبراز المقابلة بين المواقف المختلفة، كالمقابلة بين موقفى الفرح والجزع، وبين موقفى النصر والهزيمة، وبين موقفى الإقدام والاحجام.

بل إننا لنجد حرصه على إبراز المقابلة بين الألوان والهيئات كما فى قوله [١]:

يمشون مشى الجمال الزهر، يعصمهم ضرب، إذا عرد السود التنابيل

(ج)العناية باختيار أوزان قصائده ومقطوعاته:

باستقراء مدح المهاجرين والأنصار فى شعر كعب بن زهير، تبين أن الشاعر كان يؤثر البحور الممتدة ذات المسافات الصوتية الطويلة، إذ إنها تمكنه من سرد أوصافه، والإفصاح عن معانيه وأفكاره، والتأنق فى أخيلته.

ومن ثم وجدنا معظم شعر المدح لديه قد نظم فى البحور ذات المسافات الصوتية الطويلة، كقوله يمدح الرسول صلى الله عليه وسلم، فى مقطوعة له من بحر البسيط[٢]:

تحمله الناقة الأدماء معتجرا بالبرد، كالبدر جلى ليلة الظلم

وقوله يمدح المهاجرين فى قصيدته (بانت سعاد) من بحر البسيط[٣]

---

(١) المصدر السابق ص٣٧١

(٢) العمدة لابن رشيق جـ٢ ص١٣٦

(٣) شرح ديوان كعب بن زهير ص٢٣

فى عصبة من قريش قال قائلهم ببطن مكة، لما اسلموا: زولوا

وقوله يمدح الأنصار فى قصيدة له من بحر البسيط: (١)

---

من سره كرم الحياة فلا يزل فى مقنب من صالحى الأنصار

وقوله يمدح أمير المؤمنين على بن أبى طالب فى قصيدة له من بحر البسيط أيضا: (٢)

إن عليا لميمون نقيبته بالصالحات من الأعمال مشهور

ومع هذا، قد نجد له المديح فى البحور ذات المسافات الصوتية القصيرة، كقوله يمدح النبى صلى الله عليه وسلم فى مقطوعة له من مجزوء الكامل: (٣)

مسح النبى جبينه فله بياض بالخدود

وبوجهه ديباجة كرم النبوة والجدود

(د)عنايته بالتصريع فى شعره:

كان شاعرنا يحرص -أحيانا- على التصريع فى قصائده المدحية، حتى يضفى على شعره جواً موسيقيا جميلا، كقوله فى مطلع قصيدته "بانت سعاد"(٤)

---

(١) شرح ديوان كعب بن زهير ص٢٥

(٢) شرح ديوان كعب بن زهير ص٢٥٤

(٣) شرح ديوان كعب بن زهير ص٢٥٩

(٤) شرح ديوان كعب بن زهير ص٦

بانت سعاد، فقلبى اليوم متبـــول متيم إثرهـــا لـــم يجـــز مكبـــول

وكقوله فى مطلع قصيدته فى مدح أمير المؤمنين علـــى بـــن أبـــى طالب رضى الله عنه[١]

هل حبل رملة قبل البين مبتـــور أم أنت بالحلم بعد الجهل معذور

(هـــ)العناية بالقافية:

وإذا كان كعب بن زهير قد أجاد اختيار أوزان قصائده ومقطوعاته، فقد وفق أيضا فى اختيار القوافى الملائمة لشعره المدحى، وذلك لما للقافية من أهمية فى موسيقى الشعر ( فإذا قلنا إنها عبارة عن عدة أصوات تتكرر فى أواخر الأشطر، فإن تكرارها هذا يكون جزءاً هاما من الموسيقى الشعرية، فهى بمثابة الفواصل الموســـيقية، يتوقـــع السامع ترددها، ويستمتع بمثل هذا التردد الذى يطـــرق الآذان فـــى فترات زمنية منتظمة ) [٢]

وقد أشار ابن طباطبا العلوى قديما إلى العلاقـــة بـــين الأغـــراض والقوافى، فقال: [٣]

(فإذا أراد الشاعر بناء قصيدة محص المعنى الذى يريد بناء الشعر عليه فى فكره نثراً، وأعد له ما يلبسه من الألفاظ الـــذى تطابقـــه، والقوافى التى توافقه، والوزن الذى يسلس له القول عليه.. )

---

(١) شرح ديوان كعب بن زهير. صنعة الإمام أبى سعيد السكرى ص٢٥١

(٢) موسيقى الشعر. للدكتور إبراهيم أنيس ص٢٤٢ ط القاهرة سنة ١٩٥٥

(٣) عيار الشعر، لابن طباطبا العلوى ص٥

والمتأمل فى شعر كعب المدحى يلحظ أن شاعرنا يحرص على الانسجام بين القافية والموضوع، ففى مقام مدح المهاجرين يختار الشاعر "اللام المضمومة " بما فيها من جهارة وقوة لتكون قافيته فى هذا المقام المهيب.

ونراه يؤثر الراء " المكسورة، والراء حرف مجهور مكرر ليكون قافيته فى مقام مدح الأنصار، وخلع الأوصاف عليهم.

هكذا عبر كعب بن زهير (رضى الله عنه) عما يجول بخواطره فى صدق واهتمام، فكانت الدقة والمهارة فى النغم الصوتى، والانسجام الموسيقى، والاجادة فى المدح، والبراعة فى الفن.

وما من شك فى أن الموهبة الفطرية التى منحه الله إياها، والبيئة الشعرية التى نشأ فى رحابها، والحياة الإسلامية الجديدة التى تنسم أريجها، وأخلص لعقيدتها، وعاش فى ظلالها. كل ذلك كان له أثر كبير فى ذلك.

## الفصل الرابع

# آراء النقاد فى شعره

كان كعب بن زهير شاعرا موهوبا، صاحب بديهة وابتكار، مجيدا فى المدح، ذا مقدرة تعبيرية وتصويرية عالية.

وقد ارتفع كعب بشعره المدحى إلى منزلة سامية، وتبوأ مكانة مرموقة، لا سيما شعره فى مدح المهاجرين والأنصار.

ويجدر بنا ألا ننسى أن شاعرنا قد تألق نجمه، وسطعت شهرته – فى عالم الشعر والقريض – بقصيدة مدحية له، هى قصيدة ( بانت سعاد) أو (البردة) التى القاها الشاعر بين يدى النبى صلى الله عليه وسلم وفيها مدح الرسول عليه الصلاة والسلام كما مدح المهاجرين من أصحابه (رضى الله عنهم)، حتى غدت هذه القصيدة نهجا سلكه أكثر شعراء المدائح النبوية، وطريقا اقتفوا آثاره فى مدح الرسول صلى الله عليه وسلم وتفننوا فيه غاية التفنن، (فالمراجع لكتب الأدب يلحظ كيف تحولت البردة إلى قصيدة فريدة اكتسبت بمرور الزمن جدة وتألقا، وصارت موضع تبرك واستشفاع، وتقرب من الله فى المناسبات التى تتطلب تضرعاً وابتهالاً،كما تحولت أيضا إلى نموذج أعلى أنبرى الشعراء فى كل عصر إلى معارضته وتشطيره وتخميسه، وعكف عليه الدارسون شرحا وبحثا وتحليلا ومقارنة،وترجمه المترجمون إلى عدة

لغات فى الشرق والغرب على السواء) [١]

ولشهرة هذه القصيدة يكاد الدارس لشعر كعب يظن أن ليس له من الشعر غيرها، رغم أن ديوانه يزخر بالقصائد الجيد ( لكنها اضحت كالنجوم التى تفقد تألقها حين تسطع الشمس وترسل أنوارها لتضىء الأرض والوجود) [٢]

ونستطيع أن نسلط الضوء على أبرز ما قال الأبباء والنقاد القدامى والمعاصرون عن الشاعر المداح كعب بن زهير (رضى الله عنه)- فى ايجاز مراعاة للمقام-حتى نتبين مكانته الأدبية، ومنزلته الشعرية.

(أ)فابن سلام الجمحى فى كتابه (طبقات فحول الشعراء) يعده فى الطبقة الثانية، ويسلكه مع أوس بن حجر، وبشر بن أبى خازم الأسدى، والحطيئة فى طبقة واحدة. [٣]

---

(١) مقدمة ديوان كعب بن زهير. شرح ودراسة الدكتور مفيد قميحة ص٢٠ ط دار الشواف للطباعة والنشر

وأنظر: المفصل فى تاريخ العرب قبل الإسلام، لجواد على جـ٩ ص٨٦٣ ط دار العلم للملايين، بيروت والأعلام. لخير الدين الزركلى جـ٥ ص٢٢٦ دار العلم للملايين ط تاسعة ١٩٩٠م، والأدب الإسلامى بين النظرية والتطبيق. للدكتور على على صبح حـ١ ص١٩٨ القاهرة ١٩٩٨م.

(٢) مقدمة ديوان كعب بن زهير. شرح ودراسة الدكتور مفيد قميحة ص٢١ دار الشواف للطباعة والنشر

(٣) طبقات فحول الشعراء: لابن سلام الجمحى السفر الأول ص٩٧ تحقيق محمود محمد شاكر مطبعة المدنى.

(ب)وابن رشيق: يرد ذكر كعب بن زهير فى كتابه (العمدة) مدللا بقصيدته (البردة) على فضل الشعر وأهميته، وعلى أن الرسول صلى الله عليه وسلم لم ينه عن الشعر، ولم يغض من قدره، بل نهى عن الشعر الذى يتعارض مع الدعوة الإسلامية ومبادئها وقيمها ومثلها[١]

(ج)وابن قتيبة يقول عنه - فى كتابه (الشعر والشعراء) -(كان كعب فحلا مجيدا) [٢]

(د)وعن كعب بن زهير يقول صاحب (الأغانى) (وهو من الشعراء المخضرمين ومن فحول الشعراء) [٣]

(هـ)وفى معجم الشعراء للمرزبانى (كان شاعرا فحلا مجيدا) [٤]

(و)أما خلف الأحمر فيقول ( لولا أبيات لزهير أكبرها الناس لقلت إن كعبا أشعر منه) [٥]

هذه أبرز أقوال الأدباء والنقاد القدامى عن شاعر المديح كعب بن

---

(١)العمدة فى محاسن الشعر وآدابه ونقده، لابن رشيق جـ١ ص٢٢-٢٤ تحقيق محمد محيى الدين عبد الحميد الطبعة الخامسة١٤٠١هـ- ١٩٨١م

(٢)الشعر والشعراء لابن قتيبة ص٣٣ الطبعة الأولى. عالم الكتب. بيروت ١٢٨٢م

(٣)الأغانى. لأبى الفرج الأصفهانى جـ١٧ ص٨٢ تحقيق على محمد البجاوى ط مؤسسة جمال للطباعة والنشر

(٤)معجم الشعراء للإمام أبى عبيدة المرزبانى ص٣٤٢ دار الكتب العلمية. بيروت ط ثانية

(٥)خزانة الأدب. للبغدادى جـ٩ ص١٥٣ تحقيق عبد السلام محمد هارون

زهير، وهى -كما نرى – أقوال مقتضبة موجزة، لكنها مع هذا كله، تدل على أن الإجماع يكاد ينعقد بين الأدباء والنقاد القدامى على أن كعبا من فحول الشعراء المجودين الذين لهم قدم راسخة فى دنيا الأدب وعالم القريض.

وهذا ما نراه عند أكثر من كتبوا عن كعب من نقادنا المعاصرين – على قلتهم-

(ز)يقول عنه كارل بروكلمان: (ورث كعب عن أبيه ملكة الشعر، وظهر نبوغه عندما غلب الإسلام على جزيرة العرب)، ويقول عن قصيدته (البردة(هى من أشهر أشعار العرب، وألبست الشاعر حلة مجد لا يبلى) [١]

(ح)وعن كعب بن زهير، يقول أحمد حسن الزيات (أوشك أن يسامى اباه، لولا غرابة فى ألفاظه وتعقيد فى تراكيبه، وقصوره فى مطولاته) [٢]،وإن كنا لا نلحظ غرابة فى ألفاظه، ولا تعقيدا فى تراكيبه إلا فى موطن واحد هو حين يصف مشاهد البادية وحيواناتها، أما عندما يصف ممدوحيه فلا غرابة فى ألفاظه،ولا تعقيد فى تراكيبه،إنما يتسم أسلوبه بوضوح الالفاظ وجزالتها، وسلاسة الاساليب وإشراقها، وربما يعزى ذلك إلى أثر الإسلام فى شعره.

---

(١) تاريخ الأدب العربى. كارل بروكلمان. الجزء الأول ص١٥٦ نقله إلى العربية الدكتور عبد الحليم النجار ط ثالثة دار المعارف سنة ١٩٧٤

(٢) تاريخ الأدب العربى. لأحمد حسن الزيات ص١٦١ دار الثقافة – بيروت

(ط)ويرى فؤاد افرام البستانى أن ميزة شعر كعب تتلخص فى (تتبع الموصوفات. واختيار مواد التشبيهات والتعقل فى التنسيق والتأليف، وتنخل التعابير، وتثقيف القوافى) (١)

(ى)وفى كتابه (حديث الأربعاء) يستعرض الدكتور طه حسين قصيدة (البردة) لكعب بن زهير، وينتهى إلى القول: (فما أرى إلا أن مدحه فيها يعدل مدح زهير كله) (٢)

هكذا كان كعب بن زهير علماً من أعلام المديح الإسلامى، مدح المهاجرين والأنصار فى قصائد ومقطوعات جياد، تجلت فيها موهبته الشعرية، وظهرت فيها ابداعاته الأدبية، واتسمت بخصائص فنية وسمات أسلوبية قلما توفرت لغيره من شعراء عصره.

---

(١)الروائع – كعب بن زهير للأستاذ فؤاد أفرام البستانى ص٩٩ المطبعة الكاثوليكية، بيروت

(٢)حديث الأربعاء. للدكتور طه حسين جـ١ ص١٢٥ ط دار المعارف مصر

# الخاتمة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف المرسلين، وخاتم النبيين، والمبعوث رحمة للعالمين، صلوات الله وسلامه عليه وعلى آله وصحبه أجمعين.

**وبعد..**

فهذه دراسة لمدح المهاجرين والأنصار فى شعر كعب بن زهير، تناولت فيها: حياة كعب وشاعريته فى إيجاز، والمدح فى عصره فى إيجاز أشد، ثم تناولت مدح المهاجرين والأنصار فى شعر كعب بن زهير بالتحليل والدراسة، ثم كشفت عن الخصائص الفنية والسمات الاسلوبية التى اتسم بها شعره فى مدح المهاجرين والأنصار.

وأخيرا سلطت الضوء على أبرز ما قال عنه الأدباء والنقاد القدامى والمعاصرون.

**وقد اسفرت تلك الدراسة عن النتائج التالية:**

أولا: مدح كعب بن زهير المهاجرين والأنصار فى قصائد ومقطوعات جيدة ومتعددة

ثانيا: أضفى كعب على المهاجرين صفات -فى أكثرها - قديمة ألفناها عند شعراء المديح فى العصر الجاهلى، فى حين مدح الأنصار بصفات - فى معظمها - جديدة صدر فيها عن قيم الإسلام

ومثله وفضائله، كما وضحنا ذلك بالتفصيل فى البحث.

ثالثا: تمثل قصيدة كعب بن زهير فى مدح الأنصار - كما نرى- بداية التحول فى شعره نحو المعاني والقيم والمثل الإسلامية، ومن ثم فنحن نستدل بذلك على أن قصيدة شاعرنا فى مدح الأنصار قد نظمت بعد القائه قصيدة البردة بوقت ليس بالقصير، حيث تفهم تعاليم الإسلام ومثله وقيمه وفضائله وتاريخ غزواته.

رابعا: لم يقف التحول الذى طرأ على شعر كعب المدحى - بعد إسلامه - عند المعانى والأفكار أو الألفاظ والأساليب، فقد تجاوز ذلك إلى منهجه فى بناء قصيدته المدحية، كما بينا ذلك فى البحث.

خامسا: صدر كعب فى مدح المهاجرين عن عاطفة قوية، فى حين صدر فى مدح الأنصار عن عاطفة أقل حرارة، وكأنه حمل على مدح الأنصار حملا.

سادسا: كان كعب بن زهير بارعا فى معانيه المدحية، وفى طريقة عرضها، واتسامها بالوضوح وقرب المأتى، وطرافة المعنى، وتجنب الغرابة والغموض.

سابعا: امتاز كعب فى مدح المهاجرين والأنصار بخصوبة الخيال، وروعة التصوير ودقته بفضل موهبته الشعرية، وصفاء خاطره، وصحة عقيدته، وإجادته فن التصوير والتعبير.

ثامنا: يعد كعب بن زهير علما من أعلام المديح فى صدر الإسلام،

حيث تجلى فى شعره المدحى موهبته الشعرية، وإبداعاته الفنيـــة، وتأثره بقيم الإسلام ومثله وفضائله، واتسم شعره بخصائص فنية، وسمات اسلوبية قلما وجدت عند غيره من شعراء عصره.

وبعد. فهذا ما وفقنى إليه الحق سبحانه وتعالى، أملاً أن أكون قـد وفقت فى تحقيق الهدف المنشود من هذا البحث المتواضع.

والله من وراء القصد، فهو حسبى ونعم الوكيل.

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

والحمد لله رب العالمين

# المصادر والمراجع

## أولا: المطبوعات


١-ابن المعتز وأثره فى الأدب والنقد والبيان. للدكتور محمد عبد المنعم خفاجى دار العهد الجديد للطباعة ١٣٧٨هـ - ١٩٥٨م

٢-الأدب الإسلامى بين النظرية والتطبيق (ثلاثة أجزاء) للدكتور على على صبح.. الجريسى للكمبيوتر. الطباعة -التصوير- القاهرة ١٩٩٨م

٣-الاستيعاب فى معرفة الاصحاب. لابن عبد البر. تحقيق طه عبد الرؤوف سعد ط دار الغد العربى

٤-أسس النقد الأدبى عند العرب. للدكتور أحمد أحمد بدوى، مكتبة نهضة مصر ط ثالثة ١٩٦٤

٥-الأسلوب. للأستاذ أحمد الشايب. مكتبة النهضة المصرية ط ثامنة ١٤١١هـ-١٩٩١م

٦-الإصابة فى تمييز الصحابة. لابن حجر. تحقيق طه عبد الرؤوف سعد ط دار الغد العربى

٧-أصول النقد. للدكتور محمد عبد المنعم خفاجى مكتبة الكليات الأزهرية ط عيسى البابى الحلبى ١٩٧٥

٨-اصول النقد الأدبى للأستاذ أحمد الشايب مطبعة الاعتماد بالقاهرة ط ثانية ١٩٤٢م

٩-الأعلام. لخير الدين الزركلى، دار العلم للملايين، بيروت، الطبعة التاسعة، نوفمبر ١٩٩٠

١٠-الأغانى. لأبى الفرج الأصفهانى. تحقيق على محمد البجاوى ط مؤسسة جمال بيروت ١٣٨٩هـ-١٩٧٠م ونسخة أخرى مصورة عن طبعة دار الكتب المصرية.

١١-الأمالى. لأبى على القالى. طبعة دار الكتب العلمية، بيروت

١٢-أمالى المرتضى / تحقيق أبو الفضل ابراهيم، ط القاهرة ١٩٥٤م

١٣-تاريخ الأدب العربى. أحمد حسن الزيات دار الثقافة، بيروت، الطبعة الثامنة والعشرون ١٩٧٨

١٤-تاريخ الأدب العربى، كارل بروكلمان. نقله إلى العربية الدكتور عبد الحليم النجار ط ثالثة دار المعارف ١٩٧٤م

١٥-جمهرة أشعار العرب. لأبى زيد محمد بن أبى الخطاب القرشى ط دار صادر بيروت ونسخة أخرى شرح الأستاذ على فاعور. دار الكتب العلمية _ بيروت - الطبعة الأولى ١٤٠٦-١٩٨٦

١٦-حديث الابعاء. للدكتور طه حسين دار المعارف - مصر

١٧-الحياة الأدبية فى عصرى الجاهلية وصدر الإسلام. للدكتور محمد عبد المنعم خفاجى، والدكتور صلاح الدين محمد عبد التواب. مكتبة الأزهر - مطبعة عيسى البابى الحلبى ١٩٧٤م

١٨-خزانة الأدب ، لب لباب لسان العرب. للبغدادى. تحقيق عبد السلام محمد هارون الطبعة الأولى ١٤٠١هـ-١٩٨١م الناشر: مكتبة الخانجى القاهرة ودار الرفاعى بالرياض ونسخة أخرى طبعة دار الثقافة - بيروت.

١٩-دراسات فى النقد الأدبى. للدكتور حسن جاد حسن ط القاهرة ١٩٧٧م

٢٠-دلائل الاعجاز لعبد القاهر الجرجانى ط المنار

٢١-ديوان حسان بن ثابت. تحقيق الدكتور سيد حنفى حسنين ط دار المعارف ١٩٨٣م

٢٢-ديوان كعب بن زهير. صنعة الإمام أبى سعيد السكرى. شرح ودراسة الدكتور مفيد قميحة دار الشواف للطباعة والنشر الرياض، المملكة العربية السعودية ط أولى ١٤١٠ - ١٩٩٠

٢٣-ديوان النابغة الذبيانى. تحقيق وشرح كرم البستانى ط دار صادر بيروت

٢٤-الروائع -كعب بن زهير. فؤاد أفرام البستانى. دار العلم للملايين. بيروت ط ثانية ١٩٥٣م

٢٥-السيرة النبوية. لابن هشام. تحقيق محمد شحاته ابراهيم دار المنار ١٩٩٠م

٢٦-شرح ديوان زهير بن أبى سلمى. ط دار الكتب المصرية ١٣٦٣-١٩٤٤

٢٧-شرح ديوان كعب بن زهير. صنعة الامام أبى سعيد السكرى (مصور عن طبعة دار الكتب ١٣٦٩هـ-١٩٥٠م الناشر: الدار القومية للطباعة والنشر-القاهرة)

٢٨-الشعر والشعراء. لابن قتيبة. ط أولى. عالم الكتب بيروت سنة ١٢٨٢هـ

٢٩-الصناعتين. لأبى هلال العسكرى. تحقيق على محمد البجاوى ومحمد أبو الفضل ابراهيم دار إحياء الكتب العربية (عيسى البابى الحلبى) ط ثانية ١٩٧١م

٣٠-صور من الفكر العربى وتاريخ الإسلام، للدكتور محمد عبد المنعم خفاجى، دار العهد الجديد للطباعة ط أولى ١٣٧٧هـ-١٩٥٨م

٣١-طبقات فحول الشعراء. تأليف: محمد بن سلام الجمحى. شرحه: أبو فهر محمود محمد شاكر، مطبعة المدنى

٣٢-عروض الشعر العربى. للدكتور محمد عبد المنعم خفاجى، مكتبة القاهرة، الطبعة الأولى

٣٣-العصر الإسلامى. للدكتور شوقى ضيف، دار المعارف. الطبعة الثالثة عشرة ١٩٩٢م

٣٤-العصر الجاهلى. للدكتور شوقى ضيف. دار المعارف. الطبعة السابعة عشرة ١٩٩٤م

٣٥-العمدة فى محاسن الشعر وآدابه ونقده. لابن رشيق. تحقيق محمد محى الدين عبد الحميد دار الجيل. بيروت ط خامسة ١٤٠١هـ-١٩٨١م

٣٦-عيار الشعر. لابن طباطبا العلوى، تحقيق الدكتور عبد العزيز بن نصر المانع دار العلوم للطباعة ١٩٨٥م

٣٧-فن المديح وتطوره فى الشعر العربى، أحمد أبو حاقة، منشورات دار الشرق الجديد بيروت ١٩٦٢م

٣٨-الفن ومذاهبه فى الشعر العربى، للدكتور شوقى ضيف، دار المعارف، الطبعة الثانية عشرة ١٩٩٣

٣٩-فى الأدب الجاهلى، دراسة ونقد، للدكتور على على صبح ط ثانية ١٤١٤هـ -١٩٩٤م

٤٠-قصة الأدب المعاصر فى مصر الحديثة. للدكتور محمد عبد المنعم خفاجى، المطبعة المنيرية بالأزهر الشريف ط أولى ١٣٧٥هـ-١٩٥٦م

٤١-قواعد النقد الأدبى. تأليف: لارسل آبر كرومبى، ترجمة محمد عوض محمد ط القاهرة ١٩٣٦م

٤٢-مذاهب النقد وقضاياه. للدكتور عبد الرحمن عثمان، مطابع شركة الاعلانات الشرقية ١٣٩٥هـ-١٩٧٥م

٤٣-معجم الشعراء للإمام أبى عبيدة الله محمد بن عمران المرزبانى. تعليق المستشرق الدكتور فريتش كرنكو. ط دار الكتب العلمية بيروت الطبعة الثانية.

٤٤-المفصل فى تاريخ العرب قبل الإسلام، لجواد على. دار العلم للملايين، بيروت

٤٥-الموازنة بين أبى تمام والبحترى. للإمام النقادة أبى القاسم بن يحيى الآمدى تحقيق محمد محى الدين عبد الحميد. المكتبة العلمية.بيروت.

٤٦-موسيقى الشعر. للدكتور ابراهيم أنيس ط القاهرة ١٩٥٥م

٤٧-نصوص نقدية لأعلام النقاد العرب. للدكتور محمد السعدى فرهود دار الطباعة المحمدية القاهرة ط ثانية ١٣٩٩هـ-١٩٧٩م

٤٨-النقد الأدبى. لأحمد أمين ط القاهرة ( د.ت)

٤٩-النقد الأدبى الحديث. للدكتور محمد غنيمى هلال. دار الشعب ط ثالثة ١٩٦٤

٥٠-النقد العربى الحديث ومذاهبه. للدكتور محمد عبد المنعم خفاجى، الناشر: مكتبة الكليات الأزهرية - مطبعة الفجالة الجديدة. ١٩٧٥م

٥١-الوساطة بين المتنبى وخصومه. للقاضى أبى الحسن على بن عبد العزيز الجرجانى تحقيق محمد أبو الفضل ابراهيم وعلى محمد البجاوى ط عيسى البابى الحلبى ١٣٨٦هـ-١٩٦٦م

٥٢-الوسيط فى الأدب العربى، وتاريخه. للشيخ أحمد الاسكندرى، والشيخ مصطفى عنانى المطبعة الرحمانية بمصر الطبعة الثالثة ١٣٤١هـ -١٩٢٣م

**ثانيا: الدوريات:**

٥٣-مجلة كلية الدراسات الإسلامية والعربية للبنات بسوهاج. العدد السادس ١٤١٠هـ-١٩٩٠م

٥٤-مجلة كلية اللغة العربية بالزقازيق. العدد الثامن ١٤٠٨هـ-١٩٨٨م

٥٥-مجلة كلية اللغة العربية بالزقازيق العدد العاشر ١٤١٠هـ-١٩٩٠م

# فهرس الموضوعات


| الموضوع | الصفحة |
|---|---|
| **مقدمة:** | ١٩٣ |
| تمهيد: المدح فى العصر الجاهلى | ١٩٨ |
| **الفصل الأول:** التعريف بكعب بن زهير | ٢٠٥ |
| نسبه وكنيته | ٢٠٥ |
| حياته | ٢٠٧ |
| إسلامه | ٢١٠ |
| شاعريته وبواعثها | ٢١٤ |
| مذهبه الشعرى | ٢١٧ |
| **الفصل الثانى:** | ٢١٩ |
| مدح المهاجرين والأنصار فى شعر كعب بن زهير | ٢١٩ |
| المدح فى صدر الإسلام | ٢١٩ |
| مدح المهاجرين والأنصار فى شعر كعب بن زهير: | ٢٢٩ |
| أولا: مدح المهاجرين | ٢٢٩ |
| (أ)مدح الرسول صلى الله عليه وسلم | ٢٢٩ |
| صفات الرسول فى مديح كعب | ٢٣٩ |

| | |
|---|---|
| دلالة الصفات على مقام الممدوح وشخصية المادح | ٢٤٠ |
| تعقيب | ٢٤١ |
| (ب)مدح المهاجرين (رضى الله عنهم) | ٢٤٣ |
| (ج)مدح على بن أبى طالب (رضى الله عنه) | ٢٤٦ |
| نظرات نقدية | ٢٤٩ |
| ثانيا: مدح الأنصار (رضى الله عنهم) | ٢٥٢ |
| نظرات نقدية: | ٢٥٧ |
| **الفصل الثالث:** الخصائص الفنية فى شعره المدحى | ٢٦٤ |
| التجربة الشعرية | ٢٦٤ |
| العاطفة | ٢٦٧ |
| الأفكار والمعانى | ٢٧١ |
| الخيال والصورة الشعرية | ٢٧٦ |
| الألفاظ والأساليب | ٢٨١ |
| الموسيقى | ٢٨٧ |
| **الفصل الرابع:** آراء النقاد فى شعره | ٢٩٣ |
| الخاتمة | ٢٩٨ |
| المصادر والمراجع | ٣٠١ |
| الفهرس | ٣٠٨ |


والحمد لله أولا وآخراً،